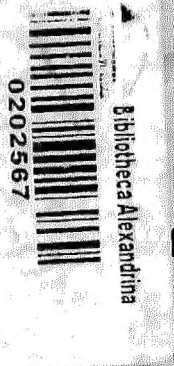


أخبار اليوم

قطاع الثقافة

حتى لا يظير الدخان

القدوس



مطبوعات



قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمعده



اتحاد الدول العربية

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

إحسان عبد القدوس

حتى لا يطير الدخان
أقدام خافية فوق البحر

٥٤١٦٦

حتى لا يطير الدخان


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

كان أول ما يلفت النظر فى شخصية فهمى
عبدالهادى هو إلحاحه المتواصل عليك حتى تقبل
سيجارة يقدمها لك ثم حرصه على أن يشعل لك
السيجارة بولاعة أنيقة يخرجها من جيبه، وهو
فى خلال الثوانى التى يستغرقها فى تقديم السيجارة
وإشعالها لك يحدثك عن آخر أخبار السجائر، عن ارتفاع
أسعارها، أو عن أصنافها الجديدة أو عن ارتفاع كمية استهلاك
السجائر فى أمريكا رغم الحملة القومية ضد التدخين أو...
أو... وبعد أن ينتهى من كل ذلك ويعيد عليه السجائر والولاعة
إلى جيبه تكتشف أن عبدالهادى لا يدخن.. فإذا أبديت له
دهشتك قال وهو يضحك :

- إننى أكتفى بخدمة مزاج الأصدقاء لأنى ولدت بلا مزاج
وربما كانت قصة فهمى عبدالهادى مع السجائر هى امتداد
لقصته مع الحشيش، فقد مرت عليه فترة حاول فيها أن يدخن
السجائر وفى نفس الفترة حاول أيضا أن يدخن الحشيش.
وكان أيامها لا يزال طالبا فى الجامعة يعيش بخمسة
جنيهات فى الشهر ترسلها له أمه من قرية كف حناتة حيث
تقيم العائلة كلها فقد كان فهمى هو أول فرد فى العائلة يدخل
القاهرة ويلتحق بالجامعة.. وقد وصل بفضل أمه التى
استسلمت لطموحه واستطاعت أن تدبر من الأفدنة الثلاثة التى

ورثتها العائلة عن أبيه الذى توفى وهو لا يزال فى العاشرة من عمره، ما يكفى ليستمر فى المدارس حتى يحصل على شهادة التوجيهية وما يكفى أيضا لينتقل إلى القاهرة ويلتحق بكلية الحقوق.

وكان يعيش فى القاهرة مقترا على نفسه مقدرا مدى الحرمان الذى تعانىة أمه وأخوته حتى يوفرأ له هذه الجنيهاات الخمسة التى يرسلونها له كل شهر، بل كان يعلم أن أمه تضطر إلى مد اليد لتوفر له هذه الجنيهاات حتى لا تتركه للضياع فى القاهرة، وأمه امرأة قوية استطاعت أن تجعل من نفسها شخصية خدومة لها قيمتها فى القرية واستطاعت أن تكسب رضا واحترام كل الأغنياء.. وربما ورث عن أمه هذه الشخصية، فقد كان يستطيع دائما أن يكسب صداقة من حوله، وكان أحيانا يعتمد اختيار أفراد معينين ليصل إلى صداقتهم خصوصا بعد أن أصبح فى كلية الحقوق.

كانت كلية الحقوق على أيامه تضم أكبر تناقض طبقى بين مختلف الكليات.. فيها الأغنياء جدا والفقراء جدا ربما لأنها كانت الكلية المخصصة لتخريج السياسيين والوزراء وهو ما يثير طموح الأغنياء والفقراء .. وقد استطاع أن يصل إلى صداقة طلبة من الأغنياء جدا بالنسبة له، وكان يحتفظ دائما بشخصيته بينهم فهو لا يمد يده ولا يشكو ولا يعلن فقره، إنما هى دائما صداقة قائمة على تبادل الخدمات والاشتراك فى الجلسات.. وكان يكتفى بالمشاركة فى الجلسات الهادئة المتصلة بالحياة الجامعية رغم أنه كان يعلم أن لأصدقائه حياة أخرى.. حياة الليل.. إنه لا يملك حق المشاركة فى حياة الليل.. ويفضل أن يحدد شخصيته بينهم داخل محيط الجامعة فهو يتميز عنهم بأنه أكثر جدية وتفوقا فى دراسته، وحاجتهم إلى

خدماته تقوم على نقل مذكرات المحاضرات وشرح التفاصيل التى يعجزون عن فهمها، ثم الأهم من ذلك هو أن يكون واسطة الاتصال بين أصدقائه وجميع التكتلات السياسية والحزبية القائمة بالجامعة.. بل إنه وصل إلى أن أصبحت هذه التكتلات فى حاجة إليه ليشد إليها أصدقاءه، ووصل من قدرته على استغلال نفسه إلى أنه كان يستطيع أن يشد فعلا هذا الصديق إلى حزب الوفد والصديق الآخر إلى الإخوان المسلمين والثالث إلى الشيوعيين فى حين أنه هو نفسه لم يكن ينتمى إلى أى تكتل من هذه التكتلات، وكان أيضا يستطيع أن يشترك برأيه عن طريق اطمئنان الجميع إلى شخصيته فى الإعداد لكثير من التحركات الطلابية السياسية سواء كانت الخروج فى مظاهرات علنية أو التخطيط لعملية سياسية سرية ولكنه رغم هذا لم يشترك بنفسه أبدا فى أى مظاهرة ولا قام بأى دور فى أى عملية.

ورغم اعتزازه بالصدقات التى يكسبها فقد كان يعانى دائما من عقدة النقص والحقد والغضب.. عقدة الفقر.. وهو ما كان يجعله رغم اتساع اتصالاته ونشاطه بين أصدقائه الأغنياء لا يستريح إلا بين الأصدقاء الفقراء.. ولكنه على قدر ما كان يخفى نقصه بالنسبة للأغنياء يخفى أيضا راحته بين الفقراء.. يخفى كل ذلك داخل قامته الطويلة وصدره العريض وابتسامته الدائمة وضحكاته السريعة وحديثه الذكى المثير الجذاب، بل كان يستطيع بشخصيته أن يخفى عن انتباه من حوله حلته الواحدة التى يرتديها طوال السنة وقد تمر عليه وهو بداخلها سنة أخرى، وقميصه المكروم، ورباط عنقه الذى أكل بعضه البعض حتى أصبح كالفتلة وحذاءه الذى تلمع شقوقه.

وهو دائما محتفظ بهذه الشخصية حتى بالنسبة لصديقه

عبدالرؤوف. وكان عبدالرؤوف أقرب الأصدقاء إليه وأكثرهم التصاقا به.. كان فى حاجة دائمة إليه.. ولم يكن عبدالرؤوف يحتاج إليه قيما يخص الحياة الجامعية فحسب، بل كان فى حاجة إليه فى حياته الخاصة.. يروى له متاعبه مع أبيه وأمه، ويحكى له عن سهرات الليل، وعن مغامراته النسائية، وعن خلافاته ومشاجراته مع أصدقائه.. وكانت شخصية عبدالرؤوف عبارة عن مجموعة من النزوات.. أحيانا يبدو كأنه فى حاجة إلى رأى فهمى فى المشكلة التى يرويهها له، وأحيانا يبدو كأنه يروى حكايته لفلاح جاهل حتى يعايره بجهله، وأحيانا يتكلم كأنه يستريح بأن يلقى متاعبه فى بئر.

وأهم ما كان فى حياة عبدالرؤوف هو الحشيش.. إنه حشاش مدمن.. وهو يستأجر شقة فى عمارة كبيرة بحى الزمالك يجتمع فيها بزملائه الحشاشين كل مساء.

ولم يكن فهمى يشارك عبدالرؤوف فى ليالى الحشيش.. لم يكن يخطر على باله أن يجرب الحشيش رغم أنه منذ ولد وهو يسمع عنه ويراه منطلقا بين شفاه وأنوف أغلب من يعرفهم.. إنما تعود منذ أيام القرية أن يمر على الحشيش من بعيد ويلقى التحية الواجبة.. سلام عليكم.. ثم يستمر فى طريقه مبتعدا.. وعندما دعاه عبدالرؤوف مرة أو مرتين للسهر معه فى شقة الحشيش اعتذر متمسكا بحرصه على ألا يعرض شخصيته لحياة الليل الخاصة بالأغنياء حتى لا يمرطه فقره.. إنما كان يكتفى بقبول دعوة عبدالرؤوف إلى بيت العائلة وكان يفرح بهذه الدعوة بينه وبين نفسه.

لأنه يضمن بها أكلة مشبعة غنية.. بل إنه عندما كان يقترب موعد الامتحانات كان يببب أحيانا فى بيت عبدالرؤوف استمرارا فى المذاكرة.

واستطاع فى هذه الأيام، أن يكسب صداقة الأب والأم، فقد كانا ينظران إليه كأنه أمل لانتشال ابنهما عبدالرؤوف مما هو فيه، بعد ما عرف عنه من تفوقه الدراسى، ورغم أنه لم يكن يتعمد الحرص على انتشال عبدالرؤوف فهو فى النهاية لا يدخل البيت بدعوة الأم ولا الأب ولكن بدعوة عبدالرؤوف ولو ضايقه بمحاولة انتشاله فربما توقف عن دعوته وحرمه من الأكلة المشبعة.. وكثيرا ما كان عبدالرؤوف يدعوه إلى البيت للمذاكرة ثم لا يكاد يفتح الكتاب حتى يغير رأيه ويذهب إلى شقة الزمالك ليعد جلسة حشيش ويترك فهمى فى البيت وحده يستذكر.. وينتظره إلى أن يعود إليه ليقدم له وجبة العشاء.

إلى أن بدأ الفقر يستبد بفهمى عبدالهادى.. حتى الجنيئات الخمسة لم يعد يستطيع الاعتماد عليها.. أمه سقطت مريضة ولم تعد تستطيع أن تمارس نشاطها فى جمع الجنيئات له.. وهو يتعذب بثقل الحمل الذى يلقيه على أمه.. إنها رغم مرضها لا تزال ترسل له.. أحيانا ثلاثة جنيئات وأحيانا جنيهين ويفاجأ فى شهر بعودة الخمسة جنيئات كلها.. وهو يبذل كل ما يستطيعه.. حاول أن يشتغل كاتبا فى محل بقال.. وحاول أن يعطى دروسا خصوصية.. وهو يقيم فى حجرة فى حارة من حوارى الجيزة داخل شقة يستأجرها موظف من أهل كفر حتاتة يدفع له جنيهين للنوم فقط.. ولم يعد يستطيع أن يدفع.

وكان خارجا من الجامعة بصحبة صديقه عبدالرؤوف، وقبل أن يركب عبدالرؤوف سيارته قال له فهمى ضاحكا :

- تعال نتمشى قليلا.. أريدك فى أمر هام.. وخرجنا إلى الشارع وعاد فهمى يقول ضاحكا :

- أنت تعرف أنى معجب بذوقك.. أريدك أن تختار معى رصيفا أنام عليه.. هل تفضل أن يكون الرصيف محاذيا

للحديقة أم الأفضل حتى اتجنب البرد أن اختار رصيفا فى حارة.

وفهم عبدالرؤوف وقال ضاحكا :

- ستنام على رصيف فى الزمالك.

قالها عبدالرؤوف فى فرحة لا تخلو من شماتة، فقد كان يضيق بإصرار فهمى على أن يبدو دائما معتزا بشخصيته وكأنه ليس فى حاجة إلى أحد رغم أن كل أصدقائه يعلمون مدى فقره ورغم أن أسلوبه الملفوف الذكى فى الاستجداء لا ينفى أنه يستجدى.. إنها المرة الأولى التى يعترف له فيها بفقره وعجزه وبأنه فى حاجة لمن يؤويه قبل أن يضطر أن يعيش على الرصيف.

وأخذ معه إلى شقة الزمالك.. شقة الحشيش التى كان فهمى يعتذر عن دخولها كلما دعاه عبدالرؤوف إليها.. إنها شقة واسعة.. أربع حجرات ليس بينها إلا حجرة واحدة مؤثثة تأثيثا كاملا على الطراز العربى.. أو الطراز البلدى.. وسائد عريضة ملقاة على الأرض وكنبة استامبولى ومقعدان وسجاد ثقيل فخم وفى وسطها مدفأة كبيرة من النحاس اللامع تختزن فى جوفها قطع الفحم ثم دولاب من الخشب - الأويمة مزدحما بالجوز والأرجيل.. أما باقى الحجرات فمهملة.. إحداها بها سرير خشبى عريض قديم تعلوه مرتبة ملوثة حتى بآثار قطع الفحم المشتعل وكان بعضهم كان يحلو له أن يمسك الجوزة ويشد أنفاس الحشيش وهو راقد فوق السرير.. وحجرة أخرى ليس فيها إلا سرير سفرى صغير وكمية من الكتب والمجلات القديمة ملقاة على الأرض.. وحجرة ثالثة وضعت فيها مائدة كبيرة تحيطها مقاعد متهاكة.. وفهمى يطوف بين الحجرات دون أن يبدو عليه شىء.. لم يكن أيامها قد وصل إلى مرحلة

اختيار وتذوق قطع الاثاث، بل لم يكن يهمه طراز أو شكل أى بيت.. إن أى بيت بالنسبة له لم يكن سوى جدران يدارى نفسه بينها، وأى حجرة من هذه الحجرات لا شك أنها أرقى من الحجرة التى كان يدفع فيها جنيهين فى الشهر.. وعبدالرؤوف يطوف الحجرات بجانبه ويخيل إليه أنه يرى فهمى فى صورة جديدة.. إن قامته الطويلة التى كان يحرص على أن يشدها فى مشيته ووقفته تبدو كأنه تركها ترتاح وتسقط فى شبه انحناء، وصدره العريض الذى كان ينفضه يبدو كأنه ضمر وفرغ من الهواء المنفوخ.. وهذا الصمت ليس من طبيعة فهمى لقد كان دائماً يتباهى بالكلام.. وقال عبدالرؤوف ولهجته لا تزال تحمل فرحة السماتة :

- اعتبر البيت بيتك.. والمفتاح معك.. إذا أردت شيئاً كلف به البواب ولكن عامله بخفة ورفق فهو خزانة أسرار هذه الحجرات.. اعمل معروف لا تغضب سيدنا البواب.. وسأمر بك هذه الليلة.

وتركه عبدالرؤوف بعد أن ترك له مفتاح الشقة .. وفهمى يطوف بالحجرات وهو ساهم.. إنه يحس بأنه أصبح فى طريق آخر.. لم يعد يستطيع أن يتباهى بالاعتماد على نفسه.. ولكنه مضطراً.. إن ما يحصل عليه فى الشهر لم يعد يكفى إلا الفول والطعمية ومع التقتير على نفسه حتى فى الفول والطعمية.. المهم أن يجد نفسه فى هذا الطريق الجديد.. أن يقيم من نفسه شخصية جديدة تتفق مع وضعه الجديد.. وهو يحس كأنه يكره نفسه.. كأنه يخون الشخصية التى ورثها عن أمه وبناها فى القاهرة بالجنيهاات الخمسة التى كان يستنزفها من دم أمه.. إنه يتمنى الآن أن تموت أمه.. أن يريحها المرض ويأخذها إلى رحمة الله، فلم يعد هناك ما يفرض عليها الحياة..

وقد كان هو الذى يفرض عليها الحياة وشقاء الحياة ومرض الحياة انتهت أمه.. باع شخصيتها لصديقه عبدالرؤوف. وترك البيت وذهب إلى حواري الجيزة وعاد يحمل كتبه وكل ما كان له فى الحارة التى كان يقيم فيها، واختار أن ينام على السرير السفرى الضيق القديم فهو رغم ضيقه يبدو أنظف من السرير العريض الآخر.. يبدو أن تاريخه أنظف واستعماله كان أرحم.. وستكون هذه هى حجرته فى شقة الزمالك.. وأخذ يرتب فيها كل احتياجاته ونقل إليها مائدة خشبية كانت فى المطبخ ووضع عليها كتبه وأقلامه. وكان المساء..

وجاء عبدالرؤوف ومعه ثلاثة من زملائه الطلبة.. ودهش فهمى دهشة كبيرة.. أن بينهم عبدالعزيز جعفر.. إنه الشخصية الثانية فى زعامة الطلبة ويبدو أحيانا كأنه أقوى من الزعيم نفسه.. لم يكن يدرى أنه حشاش. ولم يفاجأ أحد من الثلاثة به وهو يفتح لهم الباب.. ربما أبلغهم عبدالرؤوف أنه أصبح يقيم فى الشقة، أو ربما كان انضمام طالب آخر إليهم هو أمر عادى لا يستحق التعليق. واتجهوا جميعا إلى الصالة العربية إلى غرزة الحشيش.. وألقى كل منهم نفسه على وسادة من الوسائد المفروشة على الأرض، وجلس عبد العزيز جعفر على الأريكة ربما بصفته القيادية.. ورفع عبدالرؤوف غطاء المدفأة الكبيرة التى تتوسط الحجرة وأخذ يقلب الفحم وقال :

— هات لنا فحما من المطبخ يا فهمى.. تجده فى الصندوق الكبير بجانب الباب.

ونظر إليه فهمى فى حدة.. إنه يبدأ استخدامه كخادم فى البيت.. ولكن حدة فهمى هدأت سريعا.. يجب أن يكون أوسع

عقلا من هذه الحدة.. إن كلا منهم يقوم بالخدمة حتى الزعيم جعفر بدأ ينفخ فى الجوزة ويسلكها.. ولكنهم يخدمون أنفسهم.. كلهم يعدون الحشيش ليتعاطوه.. فهل يتعاطى الحشيش هو الآخر.. إنه لم يتعوده.. ولا يريده.. ولكن أصبح عليه أن يختار إما أن يكون مجرد خادم فى البيت وإما أن يكون حشاشا يساهم فى إعداد مطالب الحشيش.. إما أن يكون خادم الحشاشين أو يكون حشاشا يخدم نفسه.

وقام وعاد بقطع الفحم وهو يضحك بينه وبين نفسه.. كله حلال.. ليس هناك نص فى الإسلام يحرم الحشيش.. وهو فى الغرزة أقرب إلى الله منه فى خماره.. وسمع باب الشقة يفتح ودخل عبدالله بواب العمارة.. إنه هو الآخر يملك مفتاحا للشقة.. وكان عبدالله البواب يحمل لفات كبيرة يبدو أنها تحوى أنواعا من الطعام.. بينها كفتة وكباب.. إنه يستطيع دائما أن يلتقط رائحة الكفتة والكباب.. ضمنت العشاء يا فهمى.. ودخل عبدالله البواب إلى المطبخ ثم خرج وانضم إلى الجالسين وبدأ يتولى بنفسه إعداد معظم متطلبات الجلسة.. وفهمى يرقب كل شىء باهتمام كبير.. كل عقله مركز فى عمليات الإعداد كأنه يرقب عملية خطيرة فى معمل كيميائى.. إن الحشيش علم.. علم كبير. وبدأت الجوزة تدور.

وعندما وصلت إلى شفتيه حاول أن يتظاهر بأنه حشاش قديم، ولكن يبدو أنه ارتكب خطأ ما فقد انطلقت الضحكات من حوله.. ورفع شفتيه قبل أن يشد أنفاسه وشارك فى الضحك بافتعال وهو لا يفهم شيئا.. ثم عاد بشفتيه وشد أنفاسا متقطعة حاول أن يقلد بها أنفاس عبدالعزيز جعفر عندما مرت عليه الجوزة.. وعاد الضحك ينطلق من حوله.. وصاح زميله مصطفى عبدالمجيد :

- احنا معانا واحد مبتدىء ولا إيه.

وقال فاروق :

- روضة أطفال.

وقال صديقه عبدالرؤف :

- طول عمره يرفض العلم.. الليلة التعليم اجبارى يا فهمى.

وقال فهمى وهو يقاوم موجة الكحة التى تقطع أنفاسه :

- الليلة الليسانس وحياتك عندى.. دعونى أتعلم يا جماعة.

وعاد يشد أنفاسه وهم يضحكون من حوله، وقد زاد الاهتمام به بعد أن اكتشفوا أنه لا يزال مبتدئا فى علم الحشيش.. إنهم يلحون عليه بالجوزة حتى بدأ يحس بنوع عجيب من الراحة.. مد ساقيه أمامه وأسند رأسه على الحائط وبدا كأنه يحلم من خلال ابتسامة معلقة بين شفثيه. إنه يجب أن يكتب خطابا إلى أمه.. أمى العزيزة.. أرجو ألا ترسلنى إلى أى نقود فقد وجدت وظيفة مرتبها عشرة جنيهات سأرسل لك منها خمسة وارتاحى يا أمى أبقاك الله لى.

وتنبه على صوت مصطفى وهو يقول لجعفر :

- متى نبدأ فى عملية الانجليز ؟

وسمع جعفر يرد فى تأكيد :

- العملية جاهزة.. غذا سنبدأ.. اثنتا عشرة فرقة تم تجهيزها.. يجب أن نعتمد على أنفسنا.. لا حكومة ولا جيش ولا كلام فاضى.. إنها مسئوليتنا نحن.. سنجتمع غدا.

واشتعل انتباه فهمى.. إنها عملية لم يسمع عنها من قبل رغم اتصاله بجميع تكتلات الطلبة.. ربما تتم بتنظيم جديد لم يصل إليه بعد.. وجعفر يستمر فى سرد التفاصيل.. إنها عملية كبيرة تصل إلى داخل معسكرات الانجليز وقد تم كل شئ حتى تحديد أسماء قيادات الفرق.. والتسليح.. حتى التسليح

انتهوا منه.. إن مرتضى زينهم استطاع أن يجمع من الصعيد
مائة وخمسين بندقية وثلاثين مسدسا وعشرة صناديق من
الذخيرة والقنابل اليدوية.. وعبدالله سلمان اتصل بجمعيات
السطو على معسكرات الانجليز واتفق معهم على امداده باثنى
عشر متريوز.

وقال عبدالرؤوف :

- أبى يحتفظ فى العزبة بحوالى خمسن بندقية.. قيدوها
لحسابى.

واستمر الحديث إلى أن انتقل إلى موضوع آخر.. وعبدالله
البواب جاء بلفات الكفتة والكباب.. وفهمى عاد وأسند رأسه
على الحائط ويمد أصابعه ويلتقط قطع الكفتة والكباب ويدسها
فى فمه بعد أن تمر الجوزة به.. ويستمر فى خطابه لأمه..
يا أمى العزيزة.. أرى أن تبيعى فداننا حتى توفرى عن نفسك
التعب واطلبى من الله أن أشترى لك قريبا عشرة أفدنة..
دعواتك هى سندی يا أمى وستتغير الأحوال بإذن الله.

وانتبه عبدالرؤوف إلى جعفر يهم بالانصراف ولحق به
الباقون، وقال له عبدالرؤوف وهو يودعه :

- اتكل على عبدالله البواب.

وهز رأسه فى صمت.

وألقي نفسه على السرير السفرى الضيق وفى لحظة كان
يغط فى أعماق نومة جربها فى حياته.

واستيقظ مذعورا.

يا خبر.

الساعة وصلت إلى العاشرة صباحا.. ليست هذه عادته..
واغتسل بسرعة ولبس قميصه المكرمش وحلته طويلة العمر
وحذاءه الذى تلمع شقوقه، ومد يده والتقط قطعة من الكفتة

كانت فى بقايا طبق من أطباق الأمس، وهو يحاول أن يتذكر كل شىء.. إن كل ما يتذكره هو عملية الانجليز.. وجرى إلى الكلية يبحث عن عبدالعزيز جعفر.. الرجل الثانى فى زعامة الطلبة.. ولم يجد جعفر.. وبدأ يجرى وراء الطلبة الذين يعرف أنهم من أصدقاء جعفر ويحاول أن يصل منهم إلى شىء دون أن يصارح بأنه يعرف كل شىء، ولكن لا أحد يقول له شيئاً.. بل لا أحد يبدو عليه أنه مهتم بشىء جديد.. إلى أن وجد جعفر فى آخر النهار وانطلق إليه يسأله :

- ماذا حدث اليوم ؟

وقال جعفر فى دهشة :

- ماذا حدث فى ماذا ؟

وقال فهمى فى حماس :

- عملية الانجليز.

وقال جعفر وهو يبتسم فى زهق كأنه يتحمل مجنوناً :

- انجليز إيه يا فهمى.

وقال فهمى :

- العملية التى حدثتنا عنها فى الليل.

ونظر إليه فهمى فى دهشة ثم انطلق بقهقهة وقال :

- آه.. ذكرتنى.. انتظر حتى تجتمع الشلة ونكمل الحكاية.

حكاية.. هل كانت مجرد حكاية.. حدوتة.. ربما كان جعفر

لا يريد أن يشركه فى العملية ويتهرب منه.. حكاية.. كل

ما سمعه حكاية.. لا يمكن.. لقد كان يحدد كل شىء حتى

بالأسماء.

وعاد إلى البيت وهو تائه مغتاض من حيرته.. ودخل الصالة

العربية وتمدد على الوسادة التى اختارها لنفسه ليلة أمس

ووجد سيجارة ملغمة.. إنه يذكر أن فاروق كان يلغم

السجائر.. يلغمها بالحشيش.. كان حريضا على أن يأخذ معه الزاد والزواد قبل أن ينصرف.. لعله نسى هذه السيجارة.. وأشعلها فهمى وشد منها نفسا.. إنها ملغمة لغما ثقيلًا.. وقد كتب خطابا لأمه.. إنه يذكر أنه كتب خطابا لأمه.. لا.. لم يكتب.. كان يحلم بأنه يكتب.. يجب أن يكتب خطابا لأمه.. أمى العزيزة.. آسف لأنى تأخرت فى الكتابة إليك و.. وسمع جرس الباب يرن وقام ليفتح.

إنه مدحت نور الدين صديق عبدالرؤوف ومعه امرأة.. وهو ليس من الشلة.. إنه طالب فى كلية الهندسة وهو ابن أخت رئيس الوزراء.. هذه المرأة التى معه.. لا يمكن أن يسمع فهمى بهذه القذارات فى البيت الذى أصبح يعيش فيه.

ودخل مدحت وأدخل معه المرأة بلا استئذان وهو يقول :
- اتصلت بعبد الرؤوف لأخذ منه المفتاح فقال لى إنك هنا.. أصبحت أنت المفتاح يا فهمى.. مفتاح السعادة.

وحاول مدحت أن يشد المرأة معه إلى الصالة العربية فأمسك به فهمى وقال وهو يجذبه إلى حجرة المائدة :
- لنجلس هنا أفضل.

ونظر إليه مدحت فى دهشة ساخرة وقال :
- كما تريد يا فهمى.. إننا فى ضيافتك.

وجلس معهما حول المائدة فوق المقاعد الهزيلة المتآكلة.. وعاد مدحت يقول :

- ربما ضايقتك.. عطلناك عن المذاكرة.. عبدالرؤوف يقول دائما إنك مدمن مذاكرة.

وقال فهمى فى تأفف :
- هذا بيت عبدالرؤوف.. وأنت ضيف عبد الرؤوف.. أهلا بك.

وقال مدحت مبتسما :

- لا تقل هذا.. إنى ضيفك يا فهمى.. وحتى أثقل عليك بضيافتى فلانى أطلب فنجان قهوة.. أطلبها منك لا من عبدالرؤوف.. والمرأة صامتة مستسلمة كأنها فى انتظار استدعائها للعمل.. وفهمى ينقل نظراته بينها وبين مدحت.

ثم قام ودخل المطبخ ليعد القهوة وهو يقول :

- فنجان قهوة وبس لأنى فعلا مدمن مذاكرة.

وأحس وهو فى المطبخ بشيء يتحرك وكذب أذنيه ولكنه عندما عاد يحمل صينية القهوة لم يجد مدحت ولا المرأة ووجد باب الحجره التى تضم السرير العريض مغلقا.. وفهم وثار وألقى بصينية القهوة وما عليها على الأرض وهم أن يهجم على الباب ويحطمه ويلقى بمدحت وبالمراة من الشباك حتى لو وجدهما عاريين. ولكنه توقف.. وشد على أعصابه كأنه يمزقها قبل أن تمزقه.. إنه ليس فى بيته.. إنه فى بيت عبدالرؤوف.. وهذا هو ما يحدث فى بيت عبدالرؤوف ولو كان هو هنا لتترك مدحت والمرأة يمارسان ما يمارسانه وربما شاركهما الممارسة.. ولكن هو.. كل هذا ليس من طبيعته ولا من شخصيته التى ورثها عن أمه.. إنه حتى الآن ورغم أنه وصل إلى الثانية والعشرين من عمره ليس فى حياته أى امرأة.. لم يلمس جسد امرأة حتى ولو بأصابع يديه.. إنه بكر.. ولم يكن يتعمد أن يحتفظ ببيكارته ولكن كانت هذه فى طبيعته.. وربما كانت قسوة الحياة عليه قد ألتهت عن أن يبحث عن نفسه كرجل فى حاجة إلى امرأة.. ولكن الآن.. وهو فى بيت عبدالرؤوف.. إنه لو احتفظ ببيكارته فسيأخذونه على أنه مجرد شاهد متعة.. ربما قواد.. أو يأخذونه على أنه خيبة.. إن شخصيته الجديدة فى بيت عبدالرؤوف التى فرضت عليه أن

يتعاطى الحشيش حتى لا يكون مجرد خادم فى غرزة، تفرض عليه أيضا أن يبحث عن امرأة حتى لا يؤخذ على أنه شاهد متعة أو قواد.

وهم أن يخرج من الشقة هربا من انفعاله أمام الوقوف أمام الباب المغلق.. وتذكر أن السيجارة الملغمة لا يزال فيها بضعة أنفاس فأخذها بين أصابعه وخرج يجرى فى الشارع. إن حياته ليس فيها نساء ولا حتى بنات ولكن هناك امرأة كانت قريبة منه فى الجيزة.. سنية.. لقد كانت تطارده دائما.. وكانت كلما صادفته تتنهد قائلة :

- امتى بأه يا سى فهمى.

لقد حان الوقت يا سنية.. فهمى فى طريقه إليك.. وهو يعرف أنها امرأة محترفة.. كل الحى كان يعرف عنها ما يعرفه.. وهو حى أناس طيبين يرحمون ويعذرون.. وكانوا يعذرون سنية.

وذهب إلى هناك، ودار يبحث عنها.. إن الوقت مساء.. ربما كانت فى نوبة عمل ولن يجدها.. ولكنه وجدها فى شارع فوانيس النور.. وقال وهو لا ينظر إليها.. تعالى يا بت.

وأخذها إلى الشقة وكل ما يتمناه أن يجد مدحت نور الدين والمرأة التى جاء بها لا يزالان حيث تركهما.. إنه يريد أن يثبت له أنه لا فرق بينهما.. كلاهما يزال ممارسة النساء.. ولم يحاول يومها أن يقارن بين المرأة التى جاء بها مدحت والمرأة التى جاء بها هو.. كلتاهما من نوع واحد حتى لو اختلفت الطبقات.

ولم يجد مدحت ولا المرأة فى الشقة.

وانهار إحساسه كله مرة واحدة.. وسقط على مقعد كأنه يلهث.. ونظر إلى سنية وهو حائر ماذا يفعل بها، ثم قال فى

لهجة عمدة كفر حناتة :

- ابحنى يا بت عن المكتسة واكنسى الغرفة.

وقالت سنية وهى فرحة بوجودها معه :

- حاضر يا سى فهمى.

ولكنه لم يتركها تتم كنس الغرفة.. أخرج من جيبه عشرة قروش ونظر إلى القروش فى حسرة ثم أعطاها لسنية وطلب منها أن تتركه وتخرج.

وقالت سنية فى توسل :

- أنا تحت أمرك يا سى فهمى.. أى وقت وأى حاجة.

وقال فهمى وكأنه يهم أن يبكى :

- مع السلامة يا سنية.

ثم قام يبحث عن سيجارة أخرى ربما تكون قد بقيت من ليلة أمس .. لقد كتب خطابا لأمه.. إنه متأكد أنه كتب خطابا لأمه.. لا.. لم يكتب.. قطعا لم يكتب ويجب أن يكتب. عزيزتى أمى.

لم يكن قد مضى أكثر من أسبوع عندما قرر فهمى عبدالهادى أن يحدد موقفه من الحشيش.. وكان يجب أن يكتشف أولا ماذا يفعل الحشيش به.. وقد اكتشف أنه ينقله إلى نوع من أحلام اليقظة.. إنه يحلم أنه كتب خطابا لأمه ويحلم أنه استذكر دروسه ويحلم أنه سعيد.. وتنقله الجوزة لكى يعيش هذه الأحلام كأنها واقع كامل.. كلهم هكذا.. يعيشون أحلام اليقظة.. أحلام الحشيش.. وعندما كان عبدالعزيز جعفر الذى يعتبر أحد قادة الحركة الطلابية يتحدث عن خطة الهجوم على معسكرات الانجليز كان يحلم.. ونسى حلمه فى صباح اليوم التالى.. هناك شىء آخر يسببه له الحشيش.. إن كيانه كله ينقلب إلى مجموعة من الخلايا الكسولة البطيئة النائمة.. وهذا الكسل يجعله يتخيل كل شىء وكأنه بعيد.. بعيد جدا.. وكل شىء كأنه صعب.. صعب جدا.. إنه يتصور كأن المسافة بين باب الصلاة التى يحششون فيها وباب المطبخ كأنها مسافة طويلة تحسب بالكيلومترات، ولذلك يؤجل تحركه نحو المطبخ ليعود بكوب من الماء أو بحفنة من الفحم أو بطعام العشاء.. ويؤجل.. ويؤجل.. حتى ينام دون أن يتحرك.. وهم يقولون إن الحشيش يفتح النفس ويدفعك لأن تأكل

ضعف ما تعودته.. أبدا.. إن كل ما يحدث هو تكاسل وتباطؤ عملية المضغ.. إن ما تمضغه فى دقيقة تمضغه بعد الحشيش فى عشر دقائق.. وقد قضى فهمى ساعتين وهو يأكل واعتقد أنه أكل كل ما فى البيت ولكنه عندما حسب الحسبة فى صباح اليوم التالى اكتشف أنه لم يأكل أكثر من عادته وكل ما هناك أن ما يأكله فى ربع ساعة أكله فى ساعتين.. إن فكيه اللذين يحملان أسنانه يصابان بالكسل والاسترخاء فيستهلكان أضعاف الوقت.. تماما كالفرق بين السيارة التى تسير بالموتور والسيارة التى تسير بزق اليد.. إن الحشيش يوقف موتورات الإنسان ليعيش بزق اليد.

وهو لا ينسى زميله فاروق عندما تقرر تشطيب الغرزة والانصراف كل إلى بيته.. وإذا بفاروق يصيح وهو جالس فوق الوسادة الملقاة على الأرض.. ساقى يا جماعة.. أين ساقى.. إنى لا أجد ساقى ولا قدمى.. ابحثوا معى.. لا أستطيع أن أخرج بساق واحدة.. وكان فاروق يتكلم بلهجة جادة والذين معه يبدو كأنهم يصدقونه.. وكل ما هناك أن بثر الكسل الذى ألقاه فيها الحشيش جعلته يتخيل أنه فقد ساقه حتى يقنع نفسه بأنه لا يستطيع أن يتحرك، والذين حوله وجدوا هم أيضا حجة تعينهم على ضياع مزيد من الوقت فصدقوه، إلى أن قال له فهمى.. ساقك تحتك يا فاروق.. وشدوا له ساقه التى كان يثنيها تحته بين ضحكات صارخة.

حتى ضحكات الحشيش.. إنها حالة عصبية أكثر منها انطلاقا طبيعيا.. إن الحشاش عندما يبدأ فى الضحك ينسى أن يتوقف عنه، ويصبح كأنه حنفية فقدت صمامها فانطلق منها الماء بلا توقف.

إن فهمى لا يستطيع أن يتحمل كل ذلك.. إن الحشيش هو متعة الأغنياء.. ينقلهم ليعيشوا أحلام اليقظة.. ينسيهم الواقع.. وهو ليس غنيا.. إنه فقير.. ولا يريد أن ينسى فقره حتى لا ينسى أن يستعد للامتحان، وحتى لا ينسى تدبير حياته التى أصبح يعيشها يوما بيوم وحتى لا ينسى أن يكتب خطابا لأمه.

يجب أن يحرم على نفسه الحشيش.

إنه لا يزال أقوى من الحشيش.. لم يدمنه بعد.. وهو فى الواقع لا يتذوقه وصدره يضيق به ويستطيع ببساطة أن يستغنى عنه.. وليس معنى هذا أن يترك شقة الزمالك ويعيش بعيدا عن الغرزة.. مستحيل.. ليس له مكان آخر ولم يعد الآن يستطيع الاستغناء عن صديقه عبدالرؤوف صاحب الغرزة.. بل لا يستطيع الاستغناء عن مجتمع الغرزة نفسه.. إنه مجتمع جديد عليه ولم يكن يتصور أنه مجتمع يجمع كل هذه الشخصيات.. وليلة أمس جاء إلى الغرزة الدكتور عبدالخالق أستاذ القانون الدولى بالكلية.. أستاذهم.. ليلة قبلها جاء شريف مرتضى ابن عم وزير الداخلية.. إن شخصية صديقه عبدالرؤوف كأحد أبناء العائلات الغنية تجذب إلى الغرزة مجتمعا راقيا يهتم فهمى أن يعيش فيه وربما استطاع أن يستفيد منه.

كيف يعيش فهمى فى هذا المجتمع دون أن يحشش.. ربما كان الآن فى أشد الحاجة إلى استعادة شخصية أمه.. الشخصية التى تكسب الناس بتقديم الخدمات.. وهو يستطيع أن يجيد خدمة الحشيش وخدمة الحشاشين دون أن يحشش.. وليلتها بذل كل جهده فى خدمة الجلسة، وكان قد عرف

معظم أسرار الحشيش بل وعرف أسلوب كل فرد من أفراد
الشلة فى شد النفس وفى نوع النفس الذى يشده، وارتاحوا
كلهم لسيطرة فهمى على الجلسة وتولى إدارة الجوزة، ولكن
صديقه عبدالرؤوف لاحظ أنه يتخطى نفسه بالجوزة، وسأله
فى براءة :

- حارم نفسك من الجوزة ليه يا فهمى.

وقال فهمى ضاحكا :

- هى اللى بتتقل على يا رؤوف فاستغنيت عنها.. مسألة
كرامة.

وتعودوا بعد ذلك ألا يلحوا عليه بأن يشاركهم التدخين، بل
إنه كان يلزمهم دون أن يبدو عليه أنه ممتنع عن التدخين..
كان بذكائه وحيويته يشغلهم عن الإحساس بأنه ليس منهم..
ليس حشاشا.. لم يخطيء إلا مرة واحدة، عندما ضاق بتكاثف
الدخان داخل الغرفة ففتح الشباك ليريح صدره، وصاح
عبدالعزیز جعفر:

- مين اللى عايز يطير النعمة من حولنا.

وقال فهمى بسرعة :

- أصل نفسيين وقعوا من الشباك وطيت أجبيهم.

وضحكوا وأغلق فهمى الشباك.. ومن يومها أصبح حريصا
على أن يحتفظ بدخان الحشيش داخل الغرزة ولا يحاول أن
يطرده من الشباك إلى أن تعود عليه ولم يعد صدره يضيق به.
ولكن التطور الذى حدث لفهمى فى دنيا الحشيش حدث
وهو خارج مع عبدالرؤوف من الجامعة ذات يوم، جالسا
بجانبه فى سيارته وقال عبدالرؤوف :
- تعال نشترى قرشين.

وكان فهمى يعلم أن القرش هو وزن قطعة الحشيش التى تباع ملفوفة فى ورق سوليفان.. قرش.. نصف قرش.. ربع قرش.. حسب الطلب.. ولكنه لم يكن يعرف من أين يشتريه زملاؤه.. كان لا يزال دخيلا عليهم إلى أن صاحبه عبدالرؤوف ووقف بسيارته أمام مقهى فى شارع عماد الدين واقترب منه رجل يرتدى جلبابا ويبدو كأنه حارس السيارات، وقال فى ترحاب كبير :

- أهلا عبدالرؤوف بيه.. فى خدمتك.. بختك من السما.. اليوم آخر صهلة.

وقال عبدالرؤوف دون أن يبدو عليه التأثير :

- كلامك كستير يا أبو المعاطى.. الحقة الجمعة اللي فاتت كانت مايصة وقليلة الأصل.. لولا إن إحنا متربيين على أيديك ما كنت جيت لك.. شوف لنا قرشين.

وقال أبو المعاطى وهو يمد يده فى جيبه ويخرج لفافتين من ورق السوليفان :

- طب جرب دول وحاسب على نفسك وأنت معاهم.. عيب يا عبدالرؤوف بيه ده إنت بالنسبة لى حاجة تانية.

وقال عبدالرؤوف وهو يمد يده ويخرج حافظة نقوده :

- هل معك سجاثر.

وقال أبو المعاطى :

- موجود.

وقال عبدالرؤوف :

- طلع علبتين تقال.. تقال قوى.

وابتعد أبو المعاطى واختفى برهة ثم عاد يحمل علبتى سجاثر جولدن فلاك، وأخذهما منه عبدالرؤوف قائلا :

- ما بلاش الدخان الانجليزى ده.. الانجليز مالهمش دعوة بالحاجات دى.

- وقال أبو المعاطى :

- بس جرب يا سى عبدالرؤوف بيه.. ده إحنا بتوع المزاج. وشد عبدالرؤوف ورقة من أوراق الخمسة جنيهات أعطاها «أبو المعاطى»، وألقى عليه كلمة، ثم انطلق بسيارته.. وصورة الورقة ذات الخمسة جنيهات ملتصقة بعينى فهمى.. خمسة جنيهات.. إن كل ما فى جيبه اليوم خمسة قروش.. وقد اتفق مع جاره القديم محمد حسنين على أن يعطى درسا لابنه نظير خمسين قرشا فى الشهر وهو لا يزال فى أوائل الشهر.. ومضطر أن يعيش فى شقة فى الزمالك كالكقط يأكل فضلات الطعام، وأحيانا يطلب من عبدالله الجواب أن يشتري له طبق فول أو قطعة من الصابون ثم يتركه يحاسب عبدالرؤوف.. وهو لم يطلب من عبدالرؤوف نقودا أبدا حتى ولا بحجة الاقتراض إنما يترك له أحيانا قروشا لتغطية بعض نفقات البيت.. لم يعطه أبدا خمسة جنيهات.. ترى كم يربح أبو المعاطى من هذه الجنيهاات الخمسة التى باع بها الحشيش.. جنيها وربما اثنين.. يجب أن يدرس الموضوع.. إنه طريق سهل للوصول إلى الأرباح أسهل وأضمن من إعطاء الدروس الخصوصية لابن جاره القديم.. وهو أحق بهذا الربح من «أبو المعاطى».. يتاجر فى الحشيش.. لم لا.. العالم كله حشيش، وهذه القوانين التى تحرم الاتجار بالحشيش ليست سوى برقع اجتماعى كالبراقع التى تضعها النساء لا لحرصهن على العفة أو لعدم إثارة الرجال إنما فقط ليزدن دلالا وخلاعة.. إن المختفى أغلى من المفضوح.

وكان يتناول الغداء فى بيت عبدالرؤوف عندما قال له :
- القعدة الليلة حاتكبر.. ولأزم أفوت على «أبو المعاطى».
وقال فهمى فى بساطة :
- خليك أنت.. وأفوت عليه وأنا فى طريقى إلى الزمالك.
ووافق عبدالرؤوف وأعطاه ثمانية جنيهات ليشتري بها
أربعة قروش.. القرش بجنيهين.
وقال فهمى فى هدوء :
- والسجائر.
وقال رؤوف :
- لا.. دعنا نترك كل واحد من الشلة يأتى معه بسجائره..
دول ما بيرحموش.
وأخذ فهمى الجنيهات الثمانية فى جيبه.. منذ سنوات لم
يحمل فى جيبه كل هذا المبلغ.. وسار فى طريقه وهو يحس
كانه ازداد وسامة حتى لو لم يملك هذه الجنيهات.. إنه قوى
قوة الرجل الذى يقتل لحساب غيره، وهذه الجنيهات هى
جنيهات غيره ويشتري لحساب غيره.. ووصل إلى المقهى فى
شارع عماد الدين وبحث عن «أبو المعاطى» إلى أن وجده :
- فاكرنى يا معلم..
وبخلق أبو المعاطى فى وجهه كأنه يشك فيه ثم قال فى
ارتياح بعد أن تذكره :
ليست غريبة.. رأيتك.. كنت مع عبدالرؤوف بيه.
وقال فهمى :
- هو الذى أرسلنى إليك.. فى حاجة إلى أربعة قروش.
وقال أبو المعاطى :
- ليست عادته.. دائماً يأتينى بنفسه.

وقال فهمى :

- أنا وهو واحد.

وعاد أبو المعاطى يخلق فى وجه فهمى ثم تنهد كأنه يتكل على الله، ومد يده فى جيبيه وأخرج أربع لفافات صغيرة من ورق السوليفان وأخفاها فى يد فهمى :

- يبقوا كام يا معلم.

ونظر إليه أبو المعاطى كأنه يعاين مظهره ولوى شفتيه اشفاقا وهو يرى حلتة القديمة وقميصه المكرمش.. وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة كأنه يريد أن يكسبه :

- كم سلمك عبدالرؤوف بيه :

وقال فهمى وهو يتعمد البراءة والسذاجة :

- ثمانية جنيهات.

وقال أبو المعاطى :

- من أجل خاطرك يكفى سبعة ونصف.. معرفة جديدة..

دائمة بإذن الله.

وفهم فهمى ما يقصده أبو المعاطى.. إنه يدفع له الاتعاب.. يرشوه وهو فعلا يريد هذه الرشوة.. خمسون قرشا أتعاب شهر تدريس لابن الجيران.. إنها ليست رشوة.. إنها سمسرة.. مشاركة قانونية فى الربح.. ولكن من أدراه بنيات «أبو المعاطى».. ربما فضحة أمام عبدالرؤوف.. ربما حاول استخدامه بعد ذلك فى عمليات لا يريدھا.. إنه لا يقبل أن يكون فى خدمة أبو المعاطى.. وقال فى لهجة متعالية :

- دى فلوس أخى عبدالرؤوف يا معلم.. ما تأخذه فهو حقك

وما لا تأخذه يعود إلى عبد الرؤوف.

ونظر إليه أبو المعاطى فى دهشة كأنه أخطأ تقديره وقال :

- يبقى آخذ الثمانية جنيهاً.. عبدالرؤوف بيه مش محتاج.. كان نفسى أخدمك.

ثم وضع يده فى جيبه وأخرج لفافة أصغر قائلاً :

- هذه لك قزقزها فى الطريق أو قل لعبدالرؤوف بيه إنها هدية منى أيامنا كثيرة يا سى .. يا سى.

وقال فهمى :

- اسمى فهمى.. مع السلامة يا معلم.

وسار وهو يخطط لنفسه الوسيلة التى يستطيع أن يجعل بها من نفسه تاجر مخدرات.. إنه يرفض أن يشترك مع «أبو المعاطى» لأنه يتعامل مع عبدالرؤوف ومع بقية الشلة.. إنه فى حاجة لأن يتعامل مع تاجر لا يعرفه أحد من أصدقائه، ولا علاقة له إلا به هو شخصياً.. وهو يذكر للمعلم محروس عبدربه صاحب محل الفول والطعمية فى الجيزة.. لقد كان المعلم محروس يتولى أمره قبل أن ينتقل إلى الزمالك.. كان يمدّه بالفول والطعمية، ويتركه يدفع عندما يستطيع أن يدفع.. وهو يعلم أن محروس يبيع لزبائنه الحشيش بنفس البساطة والصراحة التى يبيع بها الفول والطعمية.. أضمن طريق هو أن يبدأ بالاعتماد على محروس.

وفى المساء عندما التقى بعبدالرؤوف سلمه القرشين ومعهما الربع قرش قائلاً :

- الربع ده هدية من «أبو المعاطى».

وصاح رؤوف :

- هدية.. وده معقول.. ده راجل حرامى ونصاب وابن

ستين فى سبعين.

وقال فهمى ضاحكاً :

- يمكن كان عايزنى أسرق معاه وقت لى الربع ده.
وقال فهمى مرحا :
- خلاص.. من هنا ورايح أنت المسئول عن التموين..
وخلى «أبو المعاطى» يفوت لك وأنت تفوت لنا.
وقال فهمى متأففا :
- لا يا عم.. ماليش دعوة «بابو المعاطى».. روح خليه
يفوت لك أنت.
وبعد أيام ذهب إلى المعلم محروس عبدربه واستقبله
محروس مرحبا مهلا :
- أهلا سى فهمى.. يعنى ما تغيرتش يا خويا.. سمعنا إنك
بقيت من أهل الزمالك.. مش باين عليك.. أوعى تكون رجعت
الأهلى تانى.
وضحك فهمى مع ضحكات المعلم محروس، واستعدا معا
الأيام التى مضت وأخبار أهل الحى، ثم قال فهمى وهو يقرب
كرسيه من كرسى المعلم :
- كنت عايزك يا معلم.
وقال محروس :
- خير يا ابنى.. كلّى لك.. ده أنت ابننا.
وقال فهمى :
- عايز حتة غبارة.. مش ليه.. أنا لا أتعاطاه.. إنما محتاج
لها.
وقال المعلم محروس :
- غبارة مرة واحدة.
وقال فهمى :
- ما أنا حآخذ معاها حنتين عادى.

ونظر إليه محروس كأنه فهمه وقال وصوته أكثر جدية :
- أنت بقيت حريف ولا إيه.. ما كنت بعيد.. إيه اللي دخلك
الدنيا.. يا دنيا.

وقال فهمى :

- محتاج يا معلم.

وقال محروس كأنه يشفق عليه :

- أنا تحت أمرك يا سى فهمى.. فوت على بكره.

وقال فهمى :

- بس تستنى على شوية.. يعنى أنت عارف.

وقال محروس :

- هو أنت لسه فى أيام زمان.. ياما استنيتك فى الفول
والطعمية.. خلاص يا سى فهمى.. حاستنى عليك لغاية ماربنا
يفرجها.

وكان فهمى قد درس الخطة كلها دراسة كاملة.. إن الغبارة
هى أرقى وأعلى وأندر أنواع الحشيش، وهو يريد أن يفرى بها
صديقه عبدالرؤوف حتى يعتمد على شراء الحشيش.. وهو
يعلم أنه لو بدأت العملية فإنه يستطيع أن يستغلها لمصلحته..
يقدم الغبارة فى أول طوفة بالجوزة.. ثم بعد ذلك يبدأ فى
خلطها بالأصناف العادية الرخيصة.. والمسطول لا يحس بنوع
الحشيش بعد الطوفة الأولى والثانية.. وهو بذلك يكسب الفرق
بين ثمن الغبارة والثمن العادى.. إنها نفس مهنة الخمار عندما
يبدأ فى غش الخمر بعد أن ينتهى الزبون من الكأس الأولى أو
الثانية.

وقد أعطاه المعلم محروس فى اليوم التالى ما اتفقا عليه..
وجرى إلى صديقه عبدالرؤوف ولاقاه فى حرم الجامعة

وانزوى به هامسا :

- معاك عشرة جنيهاً.

وقال عبدالرؤوف فى دهشة.. إنها المرة الأولى التى يفاجأ بفهمى يطلب منه مالا :

- خير يا فهمى.

وقال فهمى :

- هات بس.

وأعطاه عبدالرؤوف العشرة جنيهاً، وأخرج فهمى لفافة الغبارة من جيبه وأعطاهما له قائلاً :

- تعرف دى إيه.

وشم عبدالرؤوف اللفافة ثم فتحها وتلمسها بأصبعه وأحس بلزوجة الزيت، وقال مبهوراً :

- دى باين حتة حلوة.. دى إيه دى.

وقال فهمى :

- دى غبارة يا أستاذ.. دى الدستور بحاله.. خليها معاك لغاية ما أرجع لك.. صاحبها مستثنى.

وقال عبدالرؤوف :

- صاحبها مين ؟

وقال فهمى وهو يجرى :

- بعدين أقول لك.

تركة فهمى وهذأت أعصابه بعد أن ابتعد عنه، ودخل إلى مطعم المعلم محروس واختلى به ودفع له ستة جنيهاً من العشرة كما كان قد اتفق معه، واحتفظ بالباقى لنفسه.. كسب أربعة جنيهاً فى عملية واحدة لم تستغرق إلا يوماً واحداً، قدر ما كانت تجمع له أمه فى شهر.

وقال محروس فى دهشة :

- يعنى ما اتأخرتش.

وقال فهمى :

- عمرى ما أتأخر عليك يا معلم.

ونظر إليه المعلم محروس كأنه يشفق عليه وقال :

- دى شغلانة كبيرة يا سى فهمى.. خد بالك كويس.. وقال

فهمى فى لهجة واثقة كأنه أصبح فعلا تاجرا للمخدرات :

- خليها على الله يا معلم.. هو أدري باللى احنا فيه.

وفى طريقه إلى شقة الزمالك اشترى حذاء جديدا واحتفظ

به فى قدميه وهو داخل المحل، وأخذ يقلب فى حذائه القديم

وينظر إليه من خلال ابتسامة مسكينة كأنه يودع أياما مضت..

إنه حذاء مضى عليه ثلاث سنوات من عمر طالب فلاح كان

يحاول أن يكون أقوى من الفقر.. وحمل الحذاء القديم وخرج

به من الدكان ونادى صبيا من جامعى أعقاب السجائر، وأعطاه

له قائلا :

- خذ يا واد الجزمة دى.. أمشى بيها فى الفقر لغاية

ما توصل للشط.

والصبي لا يفهم شيئا، وخطف الحذاء القديم بنفس البرود

الذى يخطف به أعقاب السجائر، وجرى من أمامه وفهمى

يبتسم فى سعادة وهو يتتبعه بعينه.. إنه يحس إحساسا

جديدا.. يحس أنه انتصر على الفقر.. أصبح فى مستوى

أصدقائه الأغنياء.. هذه الأربعة جنيهات التى كسبها بهذه

البساطة أقنعتة بأنه أصبح من رجال الأعمال.. وشد قامته

الطويلة، ونفخ صدره العريض، وعاد إلى غرزة الزمالك.

وهللت الغرزة كلها تحية لأنفاس قطعة الحشيش الغبارة

التي يطوف بها عليهم فهمى.. وصاح عبدالرؤوف :

- ما قتلش جبت الحنة دى منين.

وقال فهمى ضاحكا :

- ما أقدرش.. ده سر عائلى.

وصاح صديقه فاروق :

- اعتبرنى نسيب العائلة.. وفوت.

ومن يومها تولى فهمى مسئولية تموين الغرزة، وتموين غرز أفراد الشلة أيضا، فكل منهم يعتبر نفسه غرزة قائمة بذاتها.. وكان لا يتعامل إلا مع المعلم محروس عبدربه، وكان يأخذ منه تحت الحساب ويحتفظ بما يأخذه فى ركن سرى من شقة الزمالك.. شقة عبدالرؤوف.. إذا حدث أى شىء لا سمح الله فالشقة شقة عبدالرؤوف، والبوليس لا يجروا عادة على كبس غرز أولاد الذوات، بل إنه كان يتعمد كلما طلب منه أحد من أفراد الشلة قرشا أو قرشين أن يجيبه :

- شوف رؤوف هو اللى معاه التموين كله.

وينتظر إلى أن يقول له رؤوف :

- ما تديله من المخزن يا فهمى.. ولأ العيلة فلست.

وكان يأخذ الثمن باسم عبدالرؤوف على اعتبار أنها مصاريف تموين أو بدل فاقد.. كان حريصا دائما على أن يتصرف كصديق لرؤوف لا كتاجر خشيش.

وعندما عاد رؤوف يسأله عن المصدر الذى يشتري منه الحشيش قال له إنه التقى بأحد بلدياته من الشرقية، وعرف إنه يتاجر فى الحشيش مع تاجر تجزئة فى الجيزة اسمه محروس عبد ربه، وقد عرفه به وأوصاه عليه .

وقال فهمى ضاحكا :

- محروس بيدينى الغبارة قبل ليلة الحنة.

أى قبل أن يضيف إليها عجين الحنة.

وضحك عبدالرؤوف وازداد استسلاما لفهمى.

وقد وصلت أرباح فهمى من الحشيش حوالى عشرة جنيهات فى الشهر.. مبلغ كبير.. ولكنه حرص على أن يخفيه.. وظل حريصا على مظهره القديم.. لم يشتر بعد الحذاء الجديد سوى قميصين وبعض غيارات داخلية، ولم يشتر حلة جديدة رغم أن حلته تجعله يبدو كأنه يتحرك داخل قفص فراخ، إلى أن زار رؤوف فى بيته ليهنئ والده سليم باشا بعودته من رحلة فى الخارج فأهداه الوالد قطعة قماش انجلىزى.. قائلا :

- أنا جبت حته لرؤوف وحتة لك يا فهمى علشان تبقوا زى بعض.. أنتم أصدقاء العمر.. والمهم أنكم تنجحوا مع بعض.

وتلقى فهمى الهدية فى فرح صاخب كأنه لم يكن يستطيع فعلا أن يشتري حلة جديدة، وتأثر الوالد بفرحة فهمى فقال لرؤوف :

- خذ فهمى للترزى بتاعنا يفصل له البدة.

وقد أهداه رؤوف فوق ذلك قميصين ورباط عنق حتى يستكمل احتياجات الحلة الجديدة. وعندما ظهر بها فى الغرزة قال ضاحكا :

- يا جماعة إحنا لازم نفتح صندوق تبرعات .

وقال جعفر ضاحكا :

- لمين.

وقال فهمى مستمرا فى الضحك :

- لسليم باشا.. علشان يسافر كمان مرة ويرجع لى ببدة

تانية.

انتم عارفين الشتا داخل ومش عايزين نتعب الباشا كفاية عليه ثمن الحشيش.

وضجوا بالضحك.. وكان فهمى يتعمد أن يقول ذلك حتى يؤكد أنه لا يزال فقيراً، وحتى لا يفضحه ضميره.

ورغم ذلك لم يكتف ضمير فهمى بالعشرة جنيهاً.. إنه يربحها مناصفة مع محروس عبدربه.. وكل قيمة محروس أنه يتعامل مع تاجر الجملة، لماذا لا يصل هو إلى تاجر الجملة مباشرة من فوق محروس.. ولكنه تردد طويلاً.. إن محروس له فضل عليه منذ أن كان يقيم فى حى الجيزة، وعدد أطباق الفول والطعمية التى لم يحاسبه عليها إلى اليوم تساوى أكثر من عشرة قروش حشيش.. يجب أن يكون باراً بالنعمة.. وأخيراً جرب أن يصارح محروس بأن أرباحه من عملية الحشيش لا تكفيه.. أنت عارف يا معلم إنى ما أعرفش إلا شوية الأصدقاء دول.. سلطتهم متجبش أكثر من كده فى الشهر.. والإنسان محتاج وأمى باعت الكام فدان.

ونظر إليه محروس طويلاً كأنه يفهمه وقال :

- أنا مش محتاج لزباينك يا سى فهمى.. خليهام لك لوحده.. حاديك بالسعر اللى تحت. ولأ أقول لك، ما أنت تعرف الحاج مصطفى عبداللطيف.. حاطمنه.. وأسيبك له.

والحاج مصطفى هو تاجر الجملة.

وبدأ فهمى يتعامل بالجملة مباشرة وارتفع ربحه إلى عشرين جنيهاً فى الشهر.
إنه غنى.

ولكنه لا يجد بعد ما يستطيع أن يفسر به مظهر الغنى الذى كشف عن غناه.. لا يستطيع أن يعتمد على الكذبة المعروفة

بأنه ورث فجأة إرثا لم يكن يحسب حسابه، والأفضل أن يبقى محتفظا بمظهره القديم.. الطالب الريفى الذى يكافح الفقر حتى يصل إلى العلم.. وهو يرسل إلى أمه وأخته بضعة جنيهات قليلة حتى لا يثير أطماعهم فيه فيفاجأ بهم يطبقون على أنفاسه فى القاهرة، والباقي يضعه فى صناديق التوفير بالبريد.

وكل ما يعتز به هو أن الغرزة أصبحت تحت سيطرته.. هو السيد هنا وليس عبدالرؤوف.. هو الذى يحتفظ بالتموين، هو الذى يوزع المعلوم.. وقد فهم أسرار الحشيش إلى حد أنه يتحكم فى مصير كل جلسة.. إنه يستطيع أن يسطلمهم فى ساعة.. فيستطيع أن يمد فى أجلهم إلى مطلع الفجر.. ويستطيع أن يوجه أحلام الحشيش.. أن يتولى توجيه موضوعات الجلسة بحيث يحلمون بالموضوع الذى يختاره لهم.. والحشيش يجعل من أهله مجتمعا غريبا يخاف فيه كل منهم من الآخر.

يخاف أن يفضحه زميله.. ولا شك أن كلهم يخافونه كما أنه يخافهم.. وربما استغل هذا الضعف.. لقد ادعى مرة أنه فى حاجة إلى إعطاء دروس خصوصية فحصل فى نفس الجلسة على ثلاث دعوات لدروس خصوصية.. للأخت الصغيرة والأخ الصغير والأبن.. والدرس الواحد بخمسين قرشا، وقد كان وهو فى الجيزة يدرس الشهر كله بهذه الخمسين ولا يقبضها كاملة.

ولكن بقى شىء لا يستطيع أن يسيطر عليه.. استعمال بعض أفراد الشلة للشقة فى لقاءاتهم النسائية.. إن عبدالرؤوف نفسه لا يمر عليه أسبوع إلا ويدخل وفى يده امرأة.. وأحيانا

يشترك هؤلاء النسوة فى جلسة الغرزة نفسها.. وهو لا يستطيع أن يكون مورد نساء لهم كما أصبح مورد حشيش.. ربما لو جاء بامرأة تقيم معه فى الشقة لحرمت الشقة على باقى النساء.. وما دام عبدالرؤوف قد أعطاه حق الإقامة فى الشقة فلا شك أنه يصبح من حقه أن يدعو امرأة لتقيم معه.

وأتى بسنية لتقيم فى الشقة وسألها وهى واقفة أمامه تستجديه بعينيها :

- إنت متجوزة يا بت.

وقالت فى استسلام :

- تحت أمرك يا سى فهمى.

وعاد يسألها :

- مخلقة.. عندك أولاد.

وقالت فى صوتها الغنوج :

- تحت أمرك يا سى فهمى.

وصرخ فى وجهها :

- إيه اللى تحت أمرى.. أنت فاهمة إنى حاتجوزك ولا حاخلف منك.. أنا عايزك هنا خدامة.. خدامة وبس.

وعادت سنية تقول فى غنج :

- تحت أمرك يا سيدى.

وعندما جاء عبدالرؤوف قال له فهمى إن الشقة فى حاجة إلى خادمة مقيمة وأنه لهذا جاء بسنية.. وقال عبدالرؤوف :

- ما عبدالله البواب كفاية.

وقال فهمى من خلال ابتسامة مزيفة :

- عبدالله كان كفاية لما كانت الشقة فاضية.. بس الشقة

دلوقت مش فاضية.. ولا أنا مش هنا.

وقال عبدالرؤوف :

- بس عبدالله يزعل.. وأنت عارف.. ده كاتم الأسرار.

وقال فهمى :

- سيب عبدالله لى.. أنا وهو حبايب من زمان.. ونظر

رؤوف إلى سنية من بعيد وقال فى خبث :

- بس دى باين عليها.. يعنى.. مش بطالة.

وقال فهمى ضاحكا :

- قوم جرب يمكن تطلع على مقاسك.

وقام عبدالرؤوف، وفتح فهمى كتبه وبدأ يذاكر استعدادا

لامتحان ليسانس الحقوق.

استطاعت سنية أن تحمل عن فهمي ثلاثة
أرباع مسئولية الغرزة وكأنها ولدت ونشأت في
غرزة.. إنها تعرف جميع أصول وتقاليد الحشيش
وتحرص عليها، بل ربما استطاعت دون أن تعدد



أن تدخل على الغرزة تقاليد جديدة لم يكن زبائنها أولاد
الأغنياء يعرفونها.. والأهم من ذلك أنها استطاعت أن تفصل
بين الغرزة وشقة العازب.. الغرزة غرزة لا يدخلها إلا
الحشيش.

أما احتياجات العازب لاستجلاب النساء فيجب أن يكون لها
مكان آخر.. يجب احترام الحشيش.. وكان مجرد وجود سنية
في شقة الزمالك قد بدأ يدفع بعض الأصدقاء على التردد في
اصطحاب النساء إليها، وإن كان بعضهم لا يزال يعطى لنفسه
حق استعمال شقة رؤوف دون أن يعترف أنها أصبحت شقة
فهمي.. وقد كان مدحت نور الدين هو أكثر أصدقاء رؤوف
استغلالاً لشقة العازب.. حتى بعد أن أصبحت سنية تقيم فيها..
كان يدخل كأنه صاحب حق ويجمال فهمي بكلمتين ويطلق
ضحكة لسنية ثم يشد المرأة التي معه ويدخل بها إلى الغرفة
التي تضم السرير الخشبي الواسع، وفهمي يكاد يلطم خديه

فى غىظ وىضطىر أن ىخرج من الشقة وىتخبط فى أى مكان
حتى ىهرب من إحساسه بهذا الوضع الذى يفرضه علیه
مدحت.. ابن أخت رؤىس الوزراء.

إلى أن جاء مدحت ىوما ومعه امرأة كالعادة واستقبلته
سنىة وهى تفتعل الذعر والحيرة قائلة :

- یا خبر یا سى مدحت بیه.. اخوات سى فهمى جابىن من
البلد وسى فهمى ذهب إلى المحطة لاستقبالهم وزمانهم
واصلىن.

وقال مدحت ساخرا :

- من أمتى سى فهمى له إخوات.. خدى یا بت وبلاش
نصب ووضع یده فى جىبه وأخرج جنىها أعطاه لها، وأخذت
سنىة الجنىه بلا كلمة شكر وقالت وهى تصده عن الوصول
إلى غرفة السرىر الواسع :

- علشان خاطرى یا سىدى.. دول فلاحىن وربنا ىستر..
أحسن تروح الشقة التانىة.

وقال مدحت فى دهشة :

- من أمتى فىه شقة تانىة.

وقالت سنىة فى حماس ىغرىه :

- دى شقة هنا فى العمارة.. الدور اللى فوقنا.. دقىقة
واحدة أجىب المفتاح من عم عبدالله البواب.

وجرت سنىة وعادت قبل أن ىصل مدحت إلى السرىر
الواسع وفى ىدها مفتاح الشقة الأخرى.. ونظر إليها مدحت فى

شك ثم هز كتفيه بلا مبالاة قائلا :

- فرجينا يا ست سنية.

وسحبته هو والمرأة التي معه إلى شقة فى الدور الأعلى
وفتحت له الباب قائلة :

- دى شقة فل.. شقة واحد خواجه مسافر.. وفيها بوتاجاز
شغال.. وكاملة من كله.. والنبي أحسن من شقتنا.. بس
ما تنساش عم عبدالله البواب.
ودخل مدحت والمرأة.

وكان عبدالله البواب قد استقبل وجود سنية فى تدمر.. إنها
ستعتدى على رزقه.. ستغنى عنه رؤوف وفهمى.. لن يكون هو
المسئول عن الشقة وعن الغرزة.. لقد استولى فهمى منذ جاء
على نصف اختصاصاته ولا شك أن سنية ستستولى على
النصف الباقي.. وبدأ فى الأيام الأولى يحاول أن يطردها وقال
لفهمى كأنه يهدده :

- يا سى فهمى بصراحة ما يصحش أن الست تفضل معاك
على طول.. السكان ابتدوا يتكلموا..

وقال فهمى وكأنه فهم ما يرمى إليه عبدالله :

- دى مش ست يا عبدالله.. دى خدامة.. وأنا سايبها علشان
تساعدك.. ما كانش هاین على إنك تطلع تكنس كل يوم.. مش
قيمتك الكنس والمسح.

وسكت عبدالله البواب، واستطاعت سنية بتوجيهات فهمى
أن تكسبه إلى أن أصبحت تتولى قيادته بعد أن فتحت له طرقا
ضاغف بها ما كان يكسبه من زبائن الغرزة.. وكانت هى التي

أقنعتة بأن يخصص الشقة التي سافر ساكنها الأجنبي وتركها مفروشة لخدمة زبائن الغرزة.. يؤجرها لهم بالساعة دون أن يعلن الإيجار إنما هي فقط خدمة يقدمها لأصدقاء سي عبدالرؤوف.

وهكذا استطاعت سنية أو استطاع فهمى بوعى سنية أن يفصل بين الغرزة وشقة العازب.. الغرزة تستقبل الأصدقاء، أما شقة العازب فهي له هو وحده وصديقه عبدالرؤوف.

وقد استقبل الأصدقاء وجود سنية فى دهشة.. فهي لا يبدو عليها أنها خادمة.. شخصيتها صنف آخر غير شخصية الخادمت.. وهى تهتم بالاحتفاظ بالأصباغ على وجهها وتتقنع فى مشيتها ويبدو تقصعها كأنها لا تفتعله لتثير الرجال إنما هو من طبيعتها.. ولدت هكذا.. إحدى بنات طبقة المتقصعات.. وتخيل البعض أنها ربما كانت عشيقة فهمى.. وقد لا تكون فى مستوى النساء اللاتى يفخر الطلبة بعشقهن.. إنها تبدو أقرب إلى مستوى المحترفات.. ولكن فهمى نفسه فلاح فقير قد يفرح بأى امرأة لمجرد أنها من القاهرة.. وفهمى يعتمد أن ينفى شبهة أى علاقة بينه وبين سنية.. إنها خادمة.. ويعاملها كخادمة ويحرم عليها الجلوس بين الأصدقاء وزوار الغرزة.. وقد سأله عنها وأجاب فى لهجة جادة :

- دى بنت كانت بتخدمنا فى الجيزة.. قلت أجيبها تخدمنا هنا.. شاطرة ونظيفة وتعودت على خدمة الطلبة.

وقال فاروق ضاحكا :

- ما دام اتعودت على الطلبة.. يبقى خلاص فرجت.

ولم يبادل فهمى الضحك وإنما زم شفتيه كأنه يرفض أن يعترف بأن سنية من هذا النوع الذى يفرج عن الطلبة.

وقد حاول أكثر من واحد من الأصدقاء استعمال سنية ولكنها كانت ترفضه فى رقة وخلاعة حتى لا تغضب من ترفضه.. كان لا يمكن أن تقبل شيئا إلا بموافقة فهمى وكانت تبلغه أولا بأول كل كلمة تلقى عليها وكل كلمة تسمعها ثم تنتظر الأوامر.. ولم يكن فهمى قد سمح لها إلا بالاستسلام لصديقه عبدالرؤوف إذا طلب منها شيئا.. وعبدالرؤوف لم يطلبها إلا مرة واحدة ثم عاد يعتمد على النساء اللاتى يأتى بهن.

وعبدالعزيز جعفر نائب زعيم الطلبة يلح عليها فى همسات عابرة ثم أصبح يلاحقها داخل المطبخ ويعود يلح عليها.. وهى تبلغ فهمى وفهمى حائر فى هذا الزعيم المفجوع الذى يستغل زعامته فى بيوت الناس ومع الخادومات.. ربما يخرم نفسه من بنات الجامعة حتى لا يفضح وحتى يحتفظ بمظهر الزعامة ثم يعوض هذا الحرمان بملاحقة الخادومات.. وأصدر فهمى أمره إلى سنية بالاستسلام لزعيم الطلبة.. لم يكن يريد أن يقدم له خدمة ولم يكن مشفقا عليه من حرمانه، ولكن كان يريد أن يذله بسر.. ومنذ أن دخل فهمى عالم الحشيش وجميع الأصدقاء ومنهم عبدالعزيز جعفر ازدادوا تقربا إليه بل احتراما له كأنه ارتفع إلى مستواهم وأصبح يستحق هذا الاحترام.. فإذا شاركهم أيضا فى حياتهم الجنسية فلا شك أنهم سيزدادون تقربا واحتراما له وسيقوى هو عليهم بأن يمسك بهم من نقاط الضعف فيهم.. الحشيش والنساء.

واخذت سنية زعيم الطلبة إلى شقة الدور العلوى بالاتفاق مع عبدالله البواب.. كانت التعليمات تفرض على سنية ألا تمارس الجنس داخل الشقة مع أى غريب مهما كان.. وأن تصر دائما على أن سى فهمى لا يعرف شيئا وأنه لو عرف لطردها من خدمة الغرزة.

والأستاذ الدكتور عبدالخالق أستاذ القانون الدولى أعجب فى احدى زيارته للغرزة بسنية وقال لها وهو ينزوى بها :
- ما تعرفيش بنت زيك كدة تشتغل عندى.. تشتغل ولو ليلة واحدة.

وقالت سنية فى لهجتها الغناجة :
- أعرف يا سيدى.. تحت أمرك يا سيدى.
وقال الدكتور عبدالخالق :

- ابقى ابعتيها لى.. ما أنا زى فهمى كده عايش لوحدى.. بس أعملى حسابك تكون بنت صغيرة يعنى زيك كدة.
وقالت سنية فى غنج :

- أنا عجزت خلاص يا سيدى.. وأنت م ينفعكش إلا الحنة الصغيرة.

وسمح فهمى بتلبية مطالب الدكتور عبدالخالق.. واتفقت سنية مع بنت من البنات وأرسلتها له فى بيته.. لقد ضمن فهمى النجاح فى القانون الدولى على الأقل فى امتحان الشفهى.

وأصبحت هذ هى مهمة سنية داخل الغرزة بجانب أعمال البيت.. والوحيد الذى لم يكن من مهمتها هو فهمى نفسه فهو

إلى الآن لم يقربها.. وقد حاولت معه كل ما أوجت إليها
أنوثتها.. حاولت من بعيد فلم يكن لها حق الاقتراب منه ولو
بلمسة.. وفى كل ليلة بعد أن تصبح معه وحدهما تنتهد قائلة :
- امتى بقى يا سى فهمى.

فيصرخ فيها :

- أجرى على المطبخ يابت بلاش قرف.

وهكذا فهمى منذ كان طالبا.. يحمل فى جيبه علبة سجائر
ولا يدخنها إنما يقدمها للأصدقاء.

ويشترى الحشيش ولا يحشش إنما يقدمه للأصدقاء.

وتحت أمره امرأة لا يستعملها إنما يتركها للأصدقاء.

وهو دائما محتفظ بشخصية واحدة لا تتغير.. الشخصية
التي ورثها عن أمه.. الشخصية التى تقدم الخدمات مع
الاعتزاز بكرامتها.. خدمات فى مقابل خدمات.. أمه كانت
تساعد زوجة العمدة ونساء القرية فى كل ما تريده النساء..
تحقيق الزيجات.. وإعداد الأفران.. وأعمال البلانة والمولدة..
و.. وتتلقى نظير ذلك مقابلا من خدمات كمجاملتها فى بيع
المحصول، وفى تزويدها بالسما، وفى صيانة أولادها.. إنها
احتياجات متبادلة.. وهو الآن يعيش فى مجتمع تقوم
احتياجاته على الحشيش والجنس.. حتى لو كانت هذه
الاحتياجات محرمة بحكم القانون فهى ليست محرمة كواقع
اجتماعى.. إنه يعيش الواقع.. لا أكثر.. ليس خاطئا ولا كافرا
ولا محرما ولا قوادا.. إنه فقط يعيش الواقع.. وهو بهذه
الفلسفة لا يزال معتزا بكل شخصيته وبكل مظاهر هذا

الاعتزاز.. إنه شاب يعمل ويبنى مستقبله.. يعمل فى مجتمع الجامعة.. ويعمل فى مجتمع الحشيش.. ويعمل فى مجتمع الجنس.. وأبرز ما فى هذا الاعتزاز هو اعتزازه بذكائه.. هذا الذكاء الفلاحى الذى استطاع أن يعايش صاحب الأرض والعمدة والمأمور والانجليز والملك.. و.. و.. عايشهم عبر آلاف السنين.. وكلهم ضاعوا وهو الذى يبقى.

ونجح فهمى وحصل على ليسانس الحقوق.
وسقط صديقه عبدالرؤوف.. لا يهم.. إنه ليس فى حاجة إلى النجاح.

وأصبح فهمى بعد أن تخرج يحس بحرج شديد عندما يذهب إلى المعلم فى الباطنية ليعود بالحشيش.. ليس هذا من قيمته ولا من قيمة التجار المحترمين.. إن التاجر المحترم لا يحمل الحشيش فى جيبه أبدا.. إلى أن ذهب يوما إلى قريته كفر حتاتة.. كانت أمه قد ماتت وعرف بعد موتها أنها قد باعت فداناً من الأفدنة الثلاثة التى ورثتها من العائلة.. ربما باعته نظير الجنيهات الخمسة التى كانت ترسلها إليه كل شهر وهو طالب فى الجامعة، وكان قد تنازل عن الفدانين الباقيين إلى إخوته.. تركهما لأخيه الأصغر يفعل بهما ما يشاء.. وكان يرسل لإخوته البنات معونات من جيبه الخاص كلما التقى بأحد من أهل القرية فى القاهرة.. وكان يذهب بنفسه إلى هناك.. مرة أو مرتين فى العام ليقضى ليلة واحدة.. مجرد وحشة كانت تسيطر عليه نحو أمه التى لم يبق منها إلا «قبرها» وفى إحدى هذه الزيارات أخذ يبخلق فى وجه عوض عبدال موجود إنه أحد شبان القرية ومعروف بينهم بالذكاء

واستطاع أن يعلم نفسه القراءة والكتابة، وكان يعمل فلاحا ولكنه كان يختفى فى البندر أحيانا ويعمل هناك أياما ثم يعود إلى القرية ليفلح الأرض من جديد.. إنه فى حاجة إلى عوض عبدالموجود فى القاهرة.. إنه يستطيع أن يعتمد عليه فى عملية الحشيش.

وأخذه معه إلى القاهرة ليقيم معه فى نفس الشقة.. وعندما تساءل عبدالرؤوف قال له فهمى : إنه سيبقى أياما ثم يعود إلى القرية، وسيخدم طول مدة إقامته مجانا.. ولم يهتم عبدالرؤوف.. ثم صحب فهمى ابن بلدته عوض عبدالموجود إلى المعلم مصطفى عبداللطيف تاجر الحشيش وقدمه له على أنه سيكون الرسول بينهما.. وقال المعلم :

- برضه كده أحسن.. أنا كنت دائما خايف عليك يا سى فهمى وكان عوض من الذكاء بحيث استطاع بسرعة أن يكسب ثقة المعلم عبداللطيف واستطاع بسرعة أن يجيد خدمة الغرزة.. واستطاع أن يكون خفيفا مسليا لكل أصدقاء عبدالرؤوف وفهمى.. وأصبح فهمى يعتمد عليه فى إدارة الغرزة كما يعتمد على سنية فى إدارة باقى الاحتياجات.. استراح فهمى.. لم يعد مسئولا إلا عن مراجعة الحسابات وتخطيط التحركات.

سنية..

وعوض..

إنهما مركز العمليات بالنسبة للقائد العام فهمى عبدالهادى. وكانت الغرزة هى كل ما يعتمد عليه فهمى فى بناء

مستقبله.. إن مصر ليست منقسمة إلى أحزاب ولكنها منقسمة إلى غرز.. كل غرزة لها أعضاء يخدمون بعضهم بعضاً في سبيل بناء الوطن.. وكانت ليلة من ليالى أم كلثوم وهى الليلة التى يزدهر فيها الحشيش ويرتفع ثمنه ويصل إلى قمته عندما استطاع فهمى أن يقنع صديقه عبدالمجيد بأن يتوسط له لدى والده المحامى الكبير عبدالمجيد مرعى ليقبله فى مكتبه تحت التمرين.. وفى نفس الليلة كان صديقه عبدالرؤوف يحكى عن مصيبة وقع فيها والده الباشا عندما وقع ضامناً لأحد أصدقائه بخمسة آلاف جنيه وهرب المدين وبدأ البنك يطالب الباشا بالسداد.

وقال فهمى :

- بسيطة.. قول للباشا ولا يهमे.. وبكره حافوت عليه.

ولا أحد يهتم بهذا الكلام.. كلام الحشيش.. ولكن فهمى كان فى الصباح فى مكتب عبدالمجيد مرعى المحامى، وفى نفس الصباح كان فى بيت عبدالرؤوف جالسا مع والده.. واستطاع أن يكسب ثقة عبدالمجيد مرعى بل أنه أعطاه حق الترافع باسم المكتب قبل أن يتم مدة التمرين.. واستطاع أن ينقذ الباشا من حجز البنك بعد أن أكتشف أن للمدين عمارة كان يخفيها ولم يكن أحد يعرف بملكيتها لها فحول الحجز على هذه العمارة.. وفرح الباشا وازدادت ثقته بفهمى إلى أن أصبح يعتمد عليه كأنه وكيل عنه فى كل مشاكله.

وكانت الغرزة تستقبل ضيوفاً عابرين من أصدقاء الأصدقاء.. ضيف مدعو وليس ضيفاً دائماً.. وكان من بين الضيوف المدعويين محمود المرشدى، إنه يزرع خمسمائة

فدان من الأرز وهو يريد تصديره.. إن الربح أصبح فى التصدير لا فى الأسواق المحلية، ولكنها أول مرة يفكر فيها فى التصدير ولا يزال يبحث عن تاجر مصدر.. وتذكر فهمى أنه منذ عدة أسابيع مر على الغرزة عبدالعزيز الشناوى.. إنه صاحب مكتب تصدير وهو يعلم أنه يصدر الإنتاج الزراعى ويعلم أنه يجلس فى مقهى فى شارع عماد الدين، وذهب إليه فهمى وفى جلسة واحدة استطاع أن يتفق معه على تصدير أرز محمود المرشدى، وتمت العملية فى أيام وخرج فهمى منها بأكبر مبلغ كان قد دخل جيبه حتى يومها.. خمسمائة جنيه.. عمولة الصفقة.. أو كما أراد أن يسميها أيامها.. أتعاب محاماه.

وهكذا كان يعمل.

يعيش فى الغرزة كل ليلة يلتقط من خلال دخان الجوزة كلمات نائمة توقظ فى عقله مشروعات وصفقات جديدة.. ويأتى الصباح ليتبخر الكلام من كل أدمغة الحشاشين إلا رأسه، ف يبدأ فى عملية تبادل ما تفتح له من خدمات.. إن الغرزة هى القيادة العامة لفكره.. لمواهبه.. لذكائه.. ربما كانت القيادة العامة لكل الفكر المصرى.. بل أصبحت الغرزة تمثل كل الطبقة الحاكمة فى مصر.. إن شخصية عبدالرؤوف ابن الباشا تجذب وتطمئن كل أولاد الطبقة الحاكمة، لا لعبقريته إنما لمجرد أنه منهم.. وكلهم من ملاك الأراضى.. إنه لو ضمت الأفدنة التى تملكها عائلات هؤلاء الأبناء لكانت توازى عشرين فى المائة من أرض مصر.. وفهمى الفلاح الفقير هو الذى يسيطر ويدير هذه الغرزة.. إنها غرزة تعبر عن حركة وطنية.. وهو زعيم

الحركة.

وابتسم فهمى بينه وبين نفسه وهو يصل إلى هذا التحليل
ابتسم كأنه يهنئ نفسه.. أنه وصل إلى الزعامة الواقعية فى
إدارة الحكم لمصلحة نفسه.

وكان بين زوار الغرزة شخصيات تمثل طبقات المنافقين..
إن النفاق أيضا تمثله طبقة.. شخصيات تمثل الانعكاس
الضعيف لشخصية فهمى نفسه.. فهمى يقدم خدمات أساسية
ولكن هذه الطبقة تقدم خدمات فرعية.. وقد دهش فهمى عندما
فوجئ فى ليلة من الليالى بالبكباشى محسن عبداللطيف يأتى
بصحبة مدحت نور الدين ابن أخت رئيس الوزراء.. إن
البكباشى محسن هو أهم ضابط بوليس فى إدارة مكافحة
المخدرات.. وليلتها وبعد أن أعد عوض عبدالوجود الجوزة
وهم فهمى بأن يلتقط قطعة الحشيش ليسقطها فوق الحجر،
قال البكباشى محسن :

- عن إذنك يا فهمى بيه.. ده واجب علينا.

وأخرج البكباشى قطعة حشيش كبيرة من جيبه.. لا يقل
وزنها عن ربع آقه، وقطم منها بأسنانه ما يكفى الجوزة،
واعتمدت الغرزة الليلة كلها على جيب البكباشى، ثم ترك
ما بقى فى جيبه هدية للغرزة قبل أن ينصرف.

وبسرعة استطاع فهمى أن يكتسب صداقة البكباشى
محسن، وكان يزوره فى إدارة مكافحة المخدرات.. ويقول له
محسن :

- امبارح كان فيه ضبطينة كبيرة فى رشيد.. إنما إيه..

حاجة تستاهل قعدة.

ويفتح درج مكتبه ثم يلف قطعة كبيرة من الحشيش الذى صودر فى الضبطية ويخفيها فى جيب فهمى.. هدية للأصدقاء.. ولم يكن فهمى يحاول أن يحاسب عبدالرؤوف أو غيره من الأصدقاء على ثمن الهدية بل كان يصارحهم بالحقيقة.. إنها هدية من الدولة.

وأصبح البكباشى محسن هو حصن الأمان لفهمى.. وقد جاء المعلم عبداللطيف تاجر الجملة يوما ليلبغه أن البوليس قبض على أحد أولاده متلبسا بالحشيش ويطلب منه أن يتولى القضية كمحام.. ولكن فهمى لم يكن يقبل قضايا المخدرات ورغم ذلك طمأن المعلم وذهب إلى البكباشى محسن، واستصدر منه أمرا بالإفراج عن ابن المعلم فى الحال.. وأخذ فهمى أتعابه حوالى ربع طربة حملها إليه عوض عبدالوجود.

وأصبح فهمى قادرا على أن يستغنى عن شقة عبدالرؤوف ويقيم وحده بعيدا عن الغرزة.. أو على الأقل يستطيع أن يقيم غرزة لحسابه.. ولكنه قرر أن يبقى حيث هو فى شقة الزمالك.. فى مركز القيادة.. وهو أيضا محتاج دائما إلى أن تبقى الغرزة منسوبة إلى صديقه عبدالرؤوف.. ابن الباشا.. إن اسمه أمان كبير يستطيع أن يختبئ وراءه، كما أنه اسم جذب إلى الغرزة أبناء هذه الطبقة الحاكمة.. ثم أن هذه الشقة يعتبرها طالع سعد..

إنه يتفاعل بها.. لقد بنى كل كيانه من داخلها.. وكل ما فعله بعد أن اغتنى أن أعاد تأثيث الشقة كلها.. أصبح له غرفة نوم فخمة وغرفة مكتب رائعة واحتفظ لعبد الرؤوف بالغرفة

المخصصة للفراش الواسع بعد أن أعاد تأثيثها هي الأخرى واحتفظ لفرقة الحشيش أو الغرزة بطابعها العربى وإن كان كل متطلبات البيت من حسابه الخاص ولكنه لم يطلب من رؤوف أن يتخلى عن دفع الإيجار على الأقل حتى لا يشعره بأن شيئا تغير.

إلى أن حدث حريق القاهرة عام ١٩٥٢.

وهو يذكر الأحاديث التى دارت ليلتها فى الغرزة.. أحاديث تتخللها نفس الضحكات المسطولة التى تتردد كل ليلة.. وعلق فى رأسه الصاحى كلمة صديقه محفوظ رضوان.. إن محفوظ هو دائما فيلسوف الغرزة.. لا يتكلم كثيرا.. وعندما يتكلم يقول حكمة.. وبعد أن يقولها ينساها كما ينساها كل من حوله.. ما عدا فهمى إنه مؤمن بفلسفة محفوظ.. هذه الفلسفة التلقائية كأنها نتيجة وحى أو إلهام.. قال محفوظ :

- ما حدث حرق القاهرة.. القاهرة حرقت نفسها.. انتحرت.. خلاص القاهرة التى عشناها لن تعود.. كلنا نعود.. شايفين حته الفحم دى.. أهى بتحرق نفسها لغاية ما تبقى تراب.. القاهرة بتاعتنا حتبقى تراب.. ده خير يا جماعة.. حاتبقى فيه قاهرة نوع تانى.

هذه الكلمات فهمها فهمى.. فهم أن هناك شيئا جديدا كبيرا سيحدث للقاهرة.. ربما ثورة.. واستعرض الوجوه الجالسة أمامه وأفواههم مسترخاة فى انتظار تلقى الجوزة.. لو قامت ثورة فإنها ستقضى على كل هذه الوجوه.. لن تعود بعدها لهذه الغرزة أى قيمة إلا إذا استطاعت أن تبنى نفسها من جديد كما تحاول القاهرة أن تبنى نفسها.

وبدا فهمى من يومها يعود إلى اهتمامه السابق بالتشكيلات السياسية السرية والعلنية كما كان أيام الجامعة.. بدأ يعيش المجتمع السياسى البعيد عن الحكم.. ولا يكاد يقع فى يده منشور حتى يبحث ويسعى ليكون على اتصال بالذين أصدره.. حتى الضباط الأحرار استطاع أن يصل إلى بعضهم بعد أن قرأ منشورات لهم.. لم يكن يعرف أن هؤلاء هم الضباط الأحرار ولكن يكفى أنهم ضباط يتكلمون فى السياسة ويعبرون عن ثورة.. ربما كانوا هم أصحاب المنشور.. وبدأ خلال ذلك يستضيف شخصيات جديدة إلى الغرزة.. شخصيات يتصور أنها تعبر عن الجديد وفى الوقت نفسه ينفر بعض الشخصيات القديمة التى تعودت على الغرزة.. ينفرها بنوع الخدمات التى يقدمها لها.. إن مجرد الابتسامة أو الكلمة تعتبر خدمة.. وكثير من ابتساماته وكلماته أصبحت منفرة، أشبه بالشلاليت وكأنه يطردهم.. والحديث فى الغرزة يعبر عن أحلام اليقظة.. ومدحت نور الدين يقول :

- عبود باشا بيشتري الوزارات.. دفع للملك خمسة ملايين
علشان يسقط وزارة ويجيب وزارة.. طيب ما نجيب عبود
نفسه.. أنا سأقترح على بابا الباشا أن يطالب بتعيين عبود
باشا رئيسا للوزراء.. ده الحل الوحيد.. ما حدش يقدر يحكم
مصر إلا مليونير.

وقال حسن خليل ضاحكا :

- ما تيجى نبعت له سنوية يمكن تقنعه.

وقهقهت الغرزة.

وقال عبدالعزيز جعفر نائب زعيم الطلبة وكان قد تخرج
وأصبح مديرا لمكتب عبدالسلام البهجورى عضو الوفد
والوزير السابق :

- هم أرادوا أن يحرقوا الوفد.. مافيش فايده.. كلها يومين
والوفد يحرقهم.. كلها يومين وسراية القبة وعابدين
حاي تحرقوا.. حريقة بحريقة

وقال حسن وهو لا يزال يضحك :

- ما تخلوا الانجليز يحرقوها بالدبابات زى ما حصل
زمان.

وفهمى ينظر إليهم فى اشفاق.

إنهم يحرقون أنفسهم.

قطعة الفحم تحرق نفسها.

وقامت الثورة.

ليس فى هذه الغرزة من يمثل الثورة.

وفهمى حائر.. تائه.

وكان أصعب ما بدأ فهمي يواجهه بعد الثورة هو أن يفهم ما هي الثورة.. لم يكن يهمه أن يفهم مبادئها أو أهدافها بل كان الأهم عنده أن يعرف من هو المسئول عنها.. أن يكتشف من الذى



يحكم مصر.. واكتشف بذكائه الريفى أنه محتاج لوقت طويل حتى يحدد بالضبط الطبقة الحاكمة الجديدة، ولكنه كان يعرف أن هذه الطبقة الجديدة هي طبقة الجيل الجديد.. طبقة الشبان.. لم يعد مهما أن يكون فلانا ابن فلان بل أصبح المهم هو فلان نفسه.. أى إن زبائن وأصدقاء الغرزة بعد أن كانوا من أبناء الطبقة الحاكمة يجب أن يكونوا من الحكام أنفسهم.. ثم إنه اكتشف بسرعة أيضا أن النظام الحزبى قد وجد داخل الثورة من يوم بدأت الثورة ولكن لم تعد الأحزاب هي أحزاب الوفد والسعديين والدستوريين والشيوعيين والإخوان.. و.. بل أصبحت الأحزاب هي حزب محمد نجيب وحزب عبدالناصر وحزب يوسف صديق وحزب خالد محيى الدين وحزب بغدادى.. و.. وهو قد قرر وضعه السياسى منذ كان طالبا فى كلية الحقوق على أن يهرب من أى وضع حزبى وأن يكون صديقا للجميع. وخادما للجميع : وأن لا يشترك أبدا فى أى عملية تنفيذية أو يتولى مركزا تنفيذيا إنما يكتفى بسماع رأى

وخدمة الأصدقاء.. ولذلك قرر أن يبتعد عن كل أحداث الثورة في أيامها الأولى وأمر بوقف مجتمع الغرزة فلم يعد يفتحها لجلسات الحشيش، وأقنع صديقه عبدالرؤوف بأنه أصبح في خطر لأنه ابن باشا ونصحه بأن ينقطع عن التردد على الشقة وأن يمنع أصدقاءه من التردد عليها حتى لا يعرضوا أنفسهم لهجمات البوليس الحربي، وأمر سنية وعوض بالآلا يسمحا لأحد من الأصدقاء القدامي بالدخول، بل أمر عوض بعدم التردد على المعلم عبداللطيف تاجر الحشيش.. وكان صريحا حتى أن صديقه عزت جعفر الذي كان أحد زعماء الطلبة جاءه يبحث عنده عن نفسين حشيش فقال له بصراحة :

- هو حد قادر يتنفس اليومين دول يا أستاذ جعفر.. إحنا بطلنا نفس من زمان وربنا يستر.

وبدأ فهمي يعود إلى نشاطه القديم قبل عهد الثورة.. نشاط البحث عن أصدقاء جدد.. وكان وهو طالب يبحث عن صداقة أولاد الأغنياء الذين يمثلون الطبقة الحاكمة، أما اليوم فهو يبحث عن صداقة طبقة لا وجود لها.. طبقة ليس لها صورة.. ورغم ذلك وصل إلى صداقة الكثيرين وكان دائما يحس في هذه الصداقات الجديدة بضعف شخصيته.. لقد تعود على أن يستمد شخصيته من داخل الغرزة.. كان هناك يحس بأنه يتحكم في كل الأصدقاء وكانت الصداقة لها قوة النفوذ وقوة الحكم.. كان يحس كأنه يعيش شخصية الحكام وهو يحس بعد أن أغلق الغرزة أنه تنازل عن الحكم.. وهو الآن مجرد واحد من أفراد الشعب أو على الأصح واحد من المنافقين الذين يجرون وراء الوجوه الجديدة.. بل إن الوجوه الجديدة التي ظهرت بعد الثورة تستقبل كل من يتقرب إليها على أنه من طبقة

المنافقين.. إن الشعب كله ينقسم فى تقدير هذه الوجوه إلى منافقين وأعداء، فيما أن يتحول إلى منافق أو يتحول إلى عدو.. ولذلك كان فهمى حريصا على البحث عن هذه الصداقات الجديدة على أن يعرفها من بعيد، وأن يبدو أمامها كأنه لا شىء.. مجرد محام صغير وأحد الشبان الوطنيين الذى لا يمارس وطنيته إلا فى خدمة الأصدقاء.

إلى أن وصل إلى صداقة عبدالمنعم ربيع.. لقد سبق أن التقى به قبل الثورة، وكان ضابطا صغيرا.. مجرد ملازم أول.. وكان يتردد على غرزة متواضعة ذهب إليها مرة مع عزت جعفر كمجرد زيارة.. وفجأة وجده بعد الثورة يجلس إلى مكتب فى غرفة بمبنى مجلس الوزراء، وسمع أنه واحد من الذين لهم حق دخول مبنى قيادة الثورة.. ربما كان سكرتيرا أو مدير مكتب فلان أو إعلان.. المهم أن عبدالمنعم استقبله بترحاب أخوى، كأن مجرد لقائهما السابق فى غرزة جعل منهما إخوة أو عائلة واحدة.. عائلة حشيش.. واكتشف فهمى بسرعة أن عبدالمنعم يعمل فى مكتب خاص يسمونه مكتب الأبحاث.. وربما المقصود هو المعلومات لا الأبحاث.. أو بصراحة أكثر مكتب مخبرات.. وسأله عبدالمنعم :

- هل لك صديق من الإخوان.. أريد أن اجتمع بأحد من الإخوان حتى أفهمهم.. والمعروفون من الإخوان لا أفهم منهم شيئا وأتمنى لو التقيت بواحد من الشبان غير المعروفين.

وقام فهمى عبدالهادى بالخدمة.. كان له صديق شاب من الإخوان يعمل كاتباً فى محل تجارى بشارع فؤاد الأول صحبه ليقدمه إلى عبدالمنعم .. وحرص على ألا يتم اللقاء فى شقة

الزمالك بل فى مكتب عبدالمنعم.. واكتفى بأن يكون كل دوره هو تقديم كل منهما للآخر ثم انسحب من بينهما. وفى مرة أخرى قال له عبدالمنعم :

- ألا تعرف أحدا من أصدقاء أحمد حسين.

وأيضا سعى فهمى إلى أن أقنع صديقا له كان من أعضاء الحزب الاشتراكى الذى يتزعمه الأستاذ أحمد حسين وصحبه إلى لقاء عبدالمنعم وانسحب من بينهما.

إنه يقوم بنفس المهمة التى كان يتولاها وهو طالب فى الجامعة بأن يقدم أصدقاءه الطلبة للأحزاب والتكتلات السياسية العلنية والسرية دون أن ينضم هو نفسه لآى حزب أو تكتل سياسى.

ولم يكن فهمى يستفيد من صداقته لعبدالمنعم إلا إحساسه بأنه قريب من السلطة وسماعه كثيرا من الأخبار والأنباء قبل إذاعتها وقيل أن أصبح واقعا.. وكان أهم ما سمعه هو أنه تقرر نهائيا فرض قانون الإصلاح الزراعى الذى يحدد الملكية بثلاثمائة فدان حتى لو أدى ذلك إلى طرد على ماهر الذى كان رئيسا للوزراء وكان يعرقل المشروع.. وجرى فهمى إلى صديقه عبدالرؤوف.. إن والده يملك خمسمائة فدان.. وقال له إن القانون الجديد سيحدد الملكية بمائة فدان فقط ويجب أن يوزع سليم باشا الأرض على أولاده قبل أن تأخذها منه الثورة.. وتعتمد فهمى أن يحدد الملكية بمائة فدان لا بثلاثمائة لأنه كان مقتنعا فعلا بأن التحديد لن يقف عند الثلاثمائة فدان، وهو صادق فعلا مع صديقه رؤوف ووالده سليم باشا.. إنهما أصحاب فضل عليه.. إن عبدالرؤوف لا يزال صاحب شقة

الزمالك التى يقيم فيها.

واقتنع الباشا بنصيحة فهمى.. إنه يثق فيه ويعامله كأنه وكيل أعماله.. ولكن كيف يتصرف فى الخمسمائة فدان.. أن يحتفظ لنفسه بمائة.. ويكتب مائة باسم ابنه عبدالرؤوف.. ومائة باسم ابنته خيرية.. ويبيع مائة.. وتبقى مائة.. وقال الباشا :

- ستكون هذه المائة باسمك يا فهمى.. أنت أيضا ابنى.. وحاول فهمى أن يتظاهر بالرفض.. إنه يتمنى هذه المائة فدان.. بعد الأفدنة الثلاثة التى تركها أبوه وطرحت له الفقر واستنزفت دم أمه حتى دفنت فيها، يصبح مالكا لمائة فدان.. إنه لا يستطيع أن يقاوم.. لا يستطيع.. وأعلن الخضوع لإلحاح الباشا بشرط أن يطبق قانون تحديد الملكية.. وكتب هذه الورقة.. وكتب عقد البيع بينه وبين الباشا وسجله دون أن يدفع مليما واحدا، حتى رسوم التسجيل كانت من مال الباشا.. ثم احتفظ بكل الأوراق معه.

وعبدالرؤوف جالس فى غرفة الزمالك وعوض يقدم له الجوزة وقد قلب شفتيه فى قرف.. لم يعد لأحد حق الدخول إلى الغرزة إلا صاحبها عبدالرؤوف.. هذه تعليمات فهمى.. أين أيام زمان.. أيام العز عندما كانت الغرزة تمتلئ بأولاد الباشوات والبكوات والزعماء والقادة كان عوض أيامها يحس أنه خادم الدولة لا خادم الغرزة.

وفهمى جالس يقرأ فى كتاب دون أن يشارك عبدالرؤوف ولو بمجرد الحديث إلى أن رفع عبدالرؤوف شفتيه من فوق غابة الجوزة وقال من خلال الدخان الذى ينطلق من صدره

كأنه يهرب منه :

- أصبحنا عائلة واحدة فعلا يا فهمى.. حتى فى الإرث..
أنت وأنا أصبحنا شركاء بالوراثة.

وقال فهمى وهو يحاول أن يبدو كأنه الأخ الأكبر.. إنه
لم يعد مجرد فقير يصادق غنيا :

- احنا طول عمرنا كده يا رؤوف.. من أيام الجامعة.. هذه
الشقة ملكك وأنا أقيم فيها معترف بملكيتك.. وأنت تعلم إنى
كنت أستطيع أن أقيم فى شقة أخرى.. لم أعد معرضا لحياة
الرصيف كما كنت عندما دعوتنى للإقامة فى هذه الشقة..
وربما فكرت أن أتركها حتى أحس بأنى أصبحت أقوى من
الرصيف وبأنى لم أعد فى حاجة إليك.. ولكن هذه الشقة
تربطنى بك.. تؤكد صداقتنا.. وحبك وتأكيدا لصداقتنا أبقى
فيها.. وكذلك الأرض.. لقد قبلت أن أكتب مائة فدان باسمى
حتى لا تضيع منك.. وكما تستطيع أن تطردنى فى أى وقت
من الشقة تستطيع أن تطردنى من الأرض.

وقال رؤوف وهو يطلق من صدره جرعة أخرى من
الدخان:

- مادامت الأرض فأنا مطمئن.

وأحس فهمى كأن رؤوف يشك فيه لأنه احتفظ بأوراق
الأرض معه وقال وصوته يتسلل من خلال الدخان :

- إنها معى أقل تعرضا للخطر وحتى لا نفصح.. وأنت تعلم
أن الباشوات وأولاد الباشوات مثلك معرضون دائما للتفتيش..
إنها أوراق تعرضبنى لما تعرضك وتعرض الباشا له.. وربنا
يستر.

وعاد رؤوف يشد أنفاسه.

وفهمى عبدالهادى يحس أنه أخذ الكثير فعلا من رؤوف وعائلته، ربما لم يبق شيء لم يأخذه بعد إلا أخته خيرية.. إنها الآن فى الثانية والعشرين من عمرها وقد تزوجت وطلقت دون أن تنجب.. طلقت لأنها زهقت من زوجها.. مجرد زهق.. وكان المعروف عنها فى المجتمع كله أنها سريعة الزهق.. كل حياتها قصص قصيرة تنتهى بالزهق وصفحات المجتمع فى صحف قبل الثورة كانت تضعها كل حين فى حالة حب جديد.. ولم يكن أبدا حبا إنما هكذا هى.. ورغم ذلك فلماذا لا يتزوجها.. مهما كان أنها ابنة باشا وهى بالنسبة له كارض الباشا يتمناها ويطمع فيها.. ولكن ليس الآن.. إنه لو تزوج ابنة باشا لباع طبقته بثمان رخيص.. طبقة الفلاحين.. والمفروض أن طبقة الفلاحين هى الآن التى تحكم أو على الأقل طبقة فوق مستوى الشبهات.. لماذا يفكر فى الزواج بها.. إنها ليست فى قيمة الأرض التى أخذها ولا الشقة التى يسكنها، يكفى أن يتخذها متعة.. إنه إلى الآن لم يجرب امرأة فى حياته.. لم يجرب الجنس.. وهو يعلم بما يقال عنه من إنه عنين.. إنه لا يحس بأنه عنين ولكنه لا يحس بأنه يريد.. فليبدأ بخيرية.. يفض بكارته فى فراش ابنة الباشا.. وهو واثق أنها لا تمانع.. إنها تحاول كثيرا أن تغريه وأن تشده إليها.

ولكنه مقتنع بأنه يخسر كثيرا لو ضعف واستجاب.. إن مجرد صداقته لأخيها وأبيها يعطيه قوة أكبر على العائلة.. ليؤجل الآن موضوع خيرية.. وهو يكثر من ترده على صديقه الجديد عبدالمنعم ويقدم له الخدمات حتى يسمع منه آخر أخبار قرارات الثورة.. وطبعاً لم يبيع لصديقه بعملية تقسيم

أرض سليم باشا.. وكان قد فكر كثيرا فى أن يعيد افتتاح الغرزة بدعوة عبدالمنعم.. إنه صديق مفيد فعلا.. ثم إنه يستطيع أن يضم إلى الغرزة شخصيات مهمة من الوجوه الجديدة.. ولكنه يخاف دائما من عبدالمنعم.. ربما كان ما يخافه منه أنه لا يعلم حتى الآن مركزه ولا مسئوليته.. أحيانا يعتبره سكرتيرا وأحيانا يعتبره مدير مكتب وأحيانا يعتبره مخبرات، وتنقلات عبدالمنعم بين مكاتب القيادات المعروفة تجعله أكثر حيرة.. ثم إنه لا يعلم بالضبط إلى أى جهة داخل الثورة ينتمى عبدالمنعم.. هل هو من رجال محمد نجيب أم من رجال عبدالناصر أم من رجال صلاح سالم أم إنه لا شىء إطلاقا.. لذلك قرر تأجيل افتتاح الغرزة إلى أن فوجئ يوما بعبدالمنعم يقول له من خلال ابتسامة خبيثة :

- عيب يا فهمى.. كان يجب أن تبلغنى.

وقال فهمى فى دهشة :

- أبلغك ماذا ؟

قال :

- عملية أرض سليم باشا.. دى عملية تهريب.

وسقط لسان فهمى فى حلقه.. ووصلت الأخبار .. يا ساتر.. وابتلع ريقه حتى استرد لسانه وقال له وهو يحاول أن يبدو طبيعيا :

- لا يمكن أن تكون عملية تهريب.. إنها عملية صريحة مسجلة فى أوراق رسمية.. أراد أن يتجنب قانون الإصلاح الزراعى فوزع أرضه.. وهذا ما تريده الثورة.. توزيع الأرض.. بل إن الثورة حددت الملكية بثلاثمائة فدان وسليم باشا حددها

لنفسه بمائة.. والأمر أخيرا لكم.. وقد وهبني مائة فدان باعتباري أمثل طبقة الفلاحين فإذا أردتم أن اردما إلى طبقة الإقطاعيين فأنا تحت أمركم.

وضحك عبدالمنعم قائلا :

- المهم إنك شاطر يا فهمى لو كل «محامى» خرج من موكله بمائة فدان تبقى الثورة قامت لخدمة المحامين.. هل تعرف خيرية ابنة سليم باشا .

ونظر إليه فهمى كأنه استرد ثقته بنفسه بعد أن اكتشف نقطة ضعف خصمه :

- طبعا أعرفها.. إنها اخت صديقى وابنة موكلى.

وقال عبدالمنعم مستمرا فى الضحك :

- إنها معروفة جدا.. ما تعرفنا بالعائلة يا استاذ فهمى.

وقال فهمى فى برود :

- يشرفهم .

وبعد أيام ذهب فهمى بصحبة عبدالمنعم لزيارة عبدالرؤوف فى بيت العائلة، واستقبلوه كأنه الثورة كلها.. كأنه الحكومة.. وبسرعة كانت خيرية قد التقطت عبدالمنعم.. إنها تريد أن تجرب الوجوه الجديدة.. الحكام الجدد.. وعبدالمنعم لم يكن له هدف من زيارته إلا خيرية.. وربما تعمد أن يشير إلى موضوع الأرض حتى يقنعهم بأنهم فى حمايته وأن من حقه أن يأخذ ثمن الحماية.

وبعدها بأيام اتصل عبدالمنعم بفهمى فى التليفون.. إنها أول مرة يتصل به.. أول مرة يسعى وراءه.. واستدعاه إلى

مكتبه، وهرع فهمى إليه، وقال عبدالمنعم ضاحكا :
- كيف حال شقة الزمالك.. كنا زمان نحلم بأن ندخلها..
وقال فهمى فى قرف :
- تحت أمرك .
وقال عبدالمنعم وهو لا يزال يضحك :
- أظن أن من حقى الآن أن أدخلها.. وستكون معى ضيفة
عزيزة.
ولم يفاجأ فهمى.. إنه يعلم أن التى ستكون معه هى خيرية
وخيرية لا تستحق أن تكون مفاجأة :
وعاد عبدالمنعم يقول :
- قلت لنفسى بدلا من أن يدخل بيننا غريبا نجعل زيتنا فى
دقيقنا.. وربما كان يكفينى بيت الباشا نفسه ولكن أفضل أن
أكون فى جو أكثر حرية.. على كل فأنا أعرف أن شقة الزمالك
هى شقة عبدالرؤوف أخو خيرية.. ولا إيه.
وقال فهمى فى برود :
- لك حق..
وقال عبدالمنعم كأنه يضع فهمى فى مكانه :
- إنك لا ترحب بالفكرة.. على كل حال معلوماتنا تقول إنه
ليس بينك وبين خيرية أى علاقة.. ويكفيك الأرض.
وضحك فهمى وهو يردد :
- لك حق..
وتعمد فهمى ألا ينتظر عبدالمنعم فى الشقة، تركه لعوض

يقدم له فنجان القهوة، وجاءت خيرية واستقبلتها سنية بفرحة العثور على كنز.. إنها تستطيع أن تستغل هذا الكنز.. الشباب والجمال واسم العائلة.. إنها ابنة باشا.. وتركت سنية الكنز مع عبدالمنعم فى الصالة الغربية.. ثم عادت إليهما بعد قليل لنقول فى حياء مفتعل :

- أتحب يا سيدى أن تنتقل إلى الشقة الأخرى.

وقال عبدالمنعم ضاحكا :

- شقة إيه يا سنية.

وقالت سنية :

- الشقة اللى فوق يا سيدى.. أصل سى فهمى زمانه جاى ويمكن يكون معاه حد.. ويمكن ست خيرية ما تحبش تشوف حد غريب.

وقال عبدالمنعم :

- دى معلومات جديدة.. ماكنتش أعرف أن فيه شقة تانية.

وهو يريد أن يكتشف الشقة الأخرى وخيرية يشدها حب الفرجة على كل جديد.. وقاما مع سنية التى تطبق تعليمات فهمى.. ليس من حق أى غريب أن يمارس شهوة الجنس فى هذه الشقة.. كلهم فوق فى الشقة التى تركها ساكنها الأجنبى ولم يعد بعد رغم مرور أكثر من عامين وإن كان يرسل إيجارها بانتظام.

وأصبح عبدالمنعم هو الضيف الوحيد على شقة الزمالك.. لم يعد يكتفى بلقاء خيرية فى الشقة العليا بل أصبح من حقه أن يجلس جلسة الغرزة وإن كان لم يصحب معه أبدا أحدا من

أصدقائه.. الجوزة لا تجمع إلا بينه وبين عبدالرؤوف، وفهمى
جالس للدردشة، وعوض يتولى مسئولية التعمير.. وقال
عبدالمنعم وهو يطلق أنفاسه :

- مانفسكش تشتغل يا رؤوف.

وقال عبدالرؤوف :

- مستنى الليسانس.

وضحك فهمى.. إن رؤوف مضى عليه فى امتحان
الليسانس ثمانى سنوات ولم يحصل عليه بعد.. وقال :

- الليسانس هو اللى مستنيك.

وقال عبدالمنعم :

- تعمل إيه بالليسانس.. اسمع.. احنا بندور على رئيس
لجمعية الحمد لله الخيرية.. اكتشفنا إن فلوسها كثير أكثر
ما كنا نتصور وعابزين واحد يمسكها يكون بتاعنا.. إيه رأيك..
إنت مش مسلم.. كفاية.. على الأقل الناس مش حتقول إن احنا
عينا فيها ضابط.

وخيل لرؤوف أنه يحلم أحلام الحشيش.

وجرى فهمى إلى عبدالمنعم فى صباح اليوم التالى
ليكتشف أنه نسى وعده لرؤوف ولكن منعم ظل عند وعده بعد
أن ذكره به فهمى.. وعين رؤوف رئيسا لجمعية الحمد لله
الخيرية الإسلامية.

وقال منعم وهو ممد على وسادة من وسائد الغرزة :

- الشقة اللى فوق حكايتها إيه.

وقال فهمى :

- صاحبها خواجه جريكى ساييها لعبدالله الباب يا جر فيها
زى ما هو عايز.

وقال عبدالمنعم وعوض يمد الجوزة إلى شفتيه :

- ما دام صاحبها ساييها.. خلاص تبقى بتاعتك.

وقال فهمى :

- ازاي باه.

وقال منعم :

- مالكش دعوة. بس المفتاح يبقى معايا يا فهمى.. لا معاك
ولا مع الباب.

وقال فهمى فى قرف.

- موافق.

وبعد أيام صدر قرار بمصادرة الشقة ويعدها استولى
فهمى على عقد الإيجار.

وتمر الأيام.. والشهور.. إلى أن اختفى عبدالمنعم فجأة..
وطاف فهمى يبحث عنه.. وبدأ يسمع قصصا عجيبة.. لقد
أجرى معه تحقيق، ولا يدري فى ماذا وقيل إنه أعتقل ثم أفرج
عنه وعين وزيرا مفوضا فى بلد افريقى.. إن البلاد الافريقية
مخصصة للمبعدين.

واستراح فهمى من ثقل دم عبدالمنعم ربيع وهز كتفيه بلا
مبالاة.. فى ستين داهية.. وقالت خيرية وهى تسمع الخبر :

- لو كان عين فى باريس أو لندن لذهبت معه.

وسألها فهمى :

- هل كان قد طلب منك الزواج.

وقالت خيرية :

- يقدر.. ما بقاش إلا دول كمان.. إنما الحقيقة هو مش بطل.

وفهمي يقيس حكايته مع عبدالمنعم.. كل ما خرج به من الحكاية هي المائة فدان التي كتبها له سليم باشا.. المرحوم.. وإنقاذ أرض العائلة من الإصلاح الزراعى.. ليس هذا قليلا. وعاد فهمي وأوقف نشاط الغرزة.

وبدا يبحث من جديد.

ظلت الغرزة مغلقة مدة طويلة، ربما أكثر من عام، حتى عبدالرؤوف لم يعد يتردد عليها إلا نادرا فقد قرر بعد أن تولى رئاسة جمعية الحمد لله الخيرية الإسلامية أن يحصر حاجته إلى الحشيش في تدخين السجائر الملفوفة.. إن له الآن هيبة وكرامة تفرض عليه أن يراعى مظهره، ومظهر الجوزة لم يعد يليق به.. تكفى السجائر.

وعوض أصبح عاطلا.. خادما عادى ليس وراءه إلا أعمال البيت، حتى إنه اقترح أن يتصل بالمعلم عبداللطيف تاجر الحشيش ويتعامل من خلاله مع غرز أخرى، ولكن فهمى لم يوافق على الاقتراح رغم ما فيه من مكاسب، وعوض لا يستطيع أن يتصرف بلا موافقة فهمى.. إنه سيده.. وفهمى لا يبخل عليه أبدا، إنه يعوضه عن البقشيش الذى كان يخرج به من الغرزة وعن العمولات التى كان يحصل عليها من المعلم عبداللطيف.. لقد اشترى عوض فدانا فى قريته ملاصقا للفدانين اللذين يملكهما فهمى.

وسنية مستسلمة.. إن فهمى بالنسبة لها هو الدنيا والآخرة رغم أنه مصر على ألا يقربها.. وقد أقنعت نفسها بأنه مسكين

غلبان حرمه الله من نعمة الجنس فهي واثقة إنه لا يقرب غيرها أيضا، وقد فرحت فرحة العمر عندما سمح لها أخيرا بأن تدلك له ظهره كل صباح بعد أن يستيقظ من النوم.. وصديقاتها اللاتي كانت تستدعيهن إلى الشقة العليا كلما طلب أحد زبائن الغرزة، أو كانت توزعهن على بيوت أصدقاء سى فهمى، أصبحن يائسات منها، وهى لا تهتم بياسهن ولا تحس بأى قيمة لأى امرأة عرفتھا إلا خيرية.. أخت سى عبدالرؤوف بيه.. ابنة الباشا.. التحفة الغالية التى تساوى اللسة منها ذهب قارون.. آه لو استطاعت التعامل مع خيرية.. وقد انقطعت عنها خيرية منذ أن اختفى عبدالمنعم ربيع.. وقد حدث بعد شهور أن اتصلت بها خيرية بالتليفون وطلبت منها أن تعد لها شقة الدور العلوى فى زيارة، وفرحت سنية.. بدأ التعامل مع خيرية.. ولكنها اضطرت أن تقول لها إنها يجب أن تسأل البواب أولا وكانت تريد أن تسأل فهمى.. وثار فهمى.. هذه الوقحة.. القدرة.. إنها وصلت إلى حد أن تبحث هى عن فراش تنام فيه مع رجل لا أن تترك الرجل يعد لها الفراش.. وبلغ من ثورة فهمى أن خافت سنية وقالت لخيرية إن الشقة مشغولة وقد تبقى مشغولة دائما.. وبدأت تعاني حسرتها.

وفهمى يوالى تقديم الخدمات للأصدقاء.. إن مكتب المحامى هو مكتب خدمات وقد جعلها خدمات من هذا النوع.. وهو لا يقبل قضايا تعرض على المحاكم.. من أدراه.. ربما قبل قضية كان خصمه فيها يستند إلى واحد من طبقة الحكام فيضيع مع القضية.. لا.. إنه لا يذهب إلى المحاكم.. إنه فقط كمحام يقبل أن يكون مستشارا لقانونيا لشركة من الشركات،

أو يقبل أن يعد عقدا لصفقة.. إن كل كبار المحامين في البلد أصبحوا يعتمدون على إعداد عقود الصفقات.. المحامون الصغار هم الذين يذهبون إلى المحاكم.. وهو دائما يحس بنقص كبير.. نقص الاعتماد على شخصية من الشخصيات الحاكمة حتى لو كانت شخصية تافهة كشخصية عبدالمنعم ربيع.

إلى أن التقى بمحمود شاكر..

إنه شيء كبير..

إنه مدير مكتب رجل مهم.. مهم جدا في الطبقة الحاكمة. وقد عرفه في زيارة لصديقه محمد المرجوشي.. وكان شاكر يشكو من عملية خاصة بأرضه.. إنه يملك عشرة أقدنة في الجعفرية وكانت ملاصقة لأرض عائلة إلهامى باشا التي استولى عليها الإصلاح الزراعى.. وقد اكتشف شاكر أن إلهامى باشا كان قد استولى على عشرين فدانا كان يملكها جده.. جد شاكر.. وبعد أن استولى الإصلاح الزراعى على الأرض فلاشك أنه أصبح من حق شاكر أن يسترد العشرين فدانا.. وقد وضع يده عليها فعلا ولكنه لا يدرى كيف يسجلها في الشهر العقارى.

وفى نفس الجلسة تعهد فهمى أن يقوم بتسجيل الأرض وهو يعلم أنه ليس فى حاجة إلى قانون أو إثبات لتسجيلها.. يكفى أن يسجلها باسم محمود شاكر مدير مكتب عبدالحميد الأنصارى الرجل المهم فى مجتمع الطبقة الحاكمة.

وسجل الأرض فعلا..

وأصبح صديقا لمحمود شاكر.

وشاكر يعانى متاعب أخرى فى زراعة هذه الأرض.. إنه فى حاجة إلى تراكتور وفى حاجة ليبنى لنفسه بيتا فيها.. إن الأرض أصبحت ثلاثين فداناً بعد أن كانت عشرة، وهو لا يملك تكاليف زراعة الثلاثين فداناً..

وقال فهمى فى بساطة:

- بسيطة..

ثم ذهب إلى عبدالرؤوف وأقنعه بسحب خمسة آلاف جنيه من أموال جمعية الحمد لله الخيرية الإسلامية عاد بها شاكر ليبدأ فى شراء التراكتور وبناء البيت.. ولم يخف على شاكر مصدر هذه الأموال وقال فى جدية :

- إنها جمعية خيرية وزراعة الأرض هى خير للبلد كله.

وضحك شاكر وقال:

- هذا ما أقنعت به صديقنا وزير الزراعة.. أقنعت أن تتولى الوزارة زراعة الأرض لحسابى باعتبار أنها عملية فيها خير للبلد.. وقد ضم الوزير إلى الأرض ثلاثة أفدنة كانت على الطريق الزراعى ولكنه أصر على أن أدفع الثمن فوراً وكاملاً بلا تقسيط.. ودفعت فى الفدان خمسين جنيهاً.

وقال فهمى فى خبث الفلاحين:

- ثمن معقول.. خمسون جنيهاً للفدان.. معقول جداً.

وتأكدت أكثر صداقة فهمى لشاكر.. صداقة خدمات فى جميع مجالات الخدمات.. وفهمى عرف أن (شاكر) له فى ليالى الدخان.. وهو يتمنى أن يجذبه إلى غرخته.. وفى براءة دعاه يوماً إلى تناول العشاء، وضحك شاكر قائلاً:

- لا أستطيع أن أرد لك دعوة.. هل سنكون وحدنا؟

وقال فهمى:

- كما تريد.. لندع من تشاء..

وقال شاكر:

- لا.. لنبدأ وحدنا.. وأنت أعزب وتقيم وحدك فدعنى

أصحب معى فتحية.. وتبقى قعدة.

المطربة فتحية.

إن علاقتها بشاكر معروفة.

ورحب فهمى بوجود فتحية.

وفتحت الغرزة من جديد.. وبذل عوض كل ما كان يختزنه

من فنون عالم الحشيش، وبذلت سنبة كل مواهبها فى اكتساب

ثقة وصداقة فتحية.. وبدأ شاكر يقضى كل ليلاليه فى غرزة

الزمالك.. وكان يدعو معه أصدقاءه.. كلهم من الطبقة الحاكمة..

وكان يصر على أن تكون معه فتحية وبدأت سنبة تتفق معها

على دعوة عدد من النساء ليساعدنها فى إحياء الحفلة.. هى

تغنى وهن يفتحن آذان الشلة. والشقة فى الدور العلوى بدأت

أسرتها تهتز وتمتلئ بالنشاط.. وفهمى رزين صامت يشد

قامته الطويلة وينفخ صدره العريض ولا يفتح الشباك حتى

لا يطير منه الدخان.. وكل ما يريده أصبح سهلاً.. ويقوم

بعمليات كبيرة لحسابه.. وصل إلى تحقيق أكثر عقود شركات

القصنيع، وأصبح محامى مندوبى الاتحاد السوفيتى وكثير من

الدول الأفريقية ويعرف دائماً كم يأخذ وممن يأخذ وكم يعطى

ومن يعطى.. ولا يتأخر فى أن يقدم للأصدقاء خدمات

صغيرة.. كل من يريد سيارة نصر تحت أمره وكل من يريد

تعيين أحد من أبنائه أو أقاربه فى السلك الدبلوماسى أو فى

مجلس إدارة أو.. أو.. تحت أمره.. ودائما تكفى كلمة شاكر..
وشاكر تحت أمره.

إلى أن فاجأه شاكر يوما بأن الرجل المهم قرر أن يقضى
الليلة معهم يا خير.

عبدالحميد الانتصارى نفسه فى غرزة الزمالك.
وهو هادى.. ساكت يبدو مكدودا متعبا كأنه يريد أن يطير
بالدخان بعيدا.. فى السماء.. وعندما حاول فهمى ليلتها أن
يخرج قطعة الحشيش ليضعها فوق الحجر.. صرخ فيه شاكر:
- لا يا فهمى.. الليلة حاجة تانية.. حته بحرى.

وتولى شاكر تموين الجوزة بنفسه، ومن ليلتها لم يعد من
مهمة فهمى تموين الجوزة، فإن الحشيش يجب أن يكشف عليه
أولا.. ويجب أن يكون حشيشا رسميا.. من البحر إلى الغرزة.
وكل من حول الرجل المهم لا ينادونه باسمه ولا بلقبه
الرسمى إنما يسمونه البرنس.. وكل واحد منهم يحاول أن
يضحك البرنس.. فإذا ضحك البرنس هلت الغرزة كلها. لقد
ضحك البرنس.

وأصبح البرنس يقضى الليالى فى غرزة الزمالك.. وأحيانا
يدق جرس التليفون ويرد أحد أفراد الشلة.. ليس من حق
فهمى أن يرد على التليفون أثناء وجود البرنس.. ويعود
الصديق ويهمس فى أذن البرنس فيقوم وينصرف فوراً.

ولكن وجود البرنس أثار فى فكر فهمى كثيرا من
الاحتمالات، فالبرنس له شلة داخل الطبقة الحاكمة، وهناك شلة
أخرى ليست شلته، وشلة ثالثة.. وفهمى يحب البرنس.. يحبه
إلى درجة أنه يشفق عليه من نفسه ومن أصدقائه.. ولكنه مع

كل هذا الحب لا يريد أن يعرض نفسه للمعارك الشلالية..
لا يريد أن يصبح ضحية للبرنس أو لغير البرنس.
وكان يعرف خليل الغمرى.. إنه أحد أفراد الشلة الأخرى
التي لا تحب البرنس.. وبدأ يزور خليل الغمرى وفي بساطة
كأنه لا يقصد شيئاً قال إنه فى إحدى الجلسات إنه صديق
البرنس وإنه يدعوه فى كثير من الليالى عنده.
وقال خليل بنفس البساطة :

- نحن نعرف يا فهمى.. ونعم الصداقة.. كن معه ولا تؤخر
شيئاً يطلبه.. إنه فى حاجة إلى من يرفه عنه وما يرفه عنه.
ولم يفاجأ فهمى بأن الشلة الأخرى تعرف أن البرنس
يتردد عليه فى غرزة الزمالك.. إنهم يتوقعون كل شىء.. وكل
ما يهمه أنه أبلغهم بنفسه ووضع نفسه تحت أمرهم.. صديقاً
لهم كما هو صديق للبرنس، ولو أرادوا هم أيضاً غرزة فأهلاً
وسهلاً.. إن كان ما يريده هو أن يأمن جميع الشلل.
وهمست فتحية فى أذن سنية :

- أنت يابت ماتعرفيش غير النسوان النيلة.. ماتعرفيش
واحدة عليها القيمة.

وقالت سنية والمرح يملأ صدرها:

- أعرف يا سنى.

وقالت فتحية وهى تبخلق فى وجه سنية تحاول أن تكتشف
أغوارها:

- زى مين كده؟

وبسرعة قالت سنية :

- زى ست خيرية.. دى بنت باشا.. تربية حلوة.. وشابة..

وتتكم فرنساوى.

وقالت فتحية :

- طب هاتيهـا.

وقالت سنية فى براءة:

- لمين يا ستى؟

وقالت فتحية:

- للبرنس.. مافيش ولا واحدة من صاحباتى عجبتـه..
وحرام يقعد كده لوحده وكل واحد غيره معاه واحدة.

وشهقت سنية :

- يا خبر.. للبرنس نفسه.. حاضر يا ستى.. أقول لها.

وندمت سنية بعدها لأنها تعهدت باستدعاء خيرية قبل أن تستأذن فهمى.. وعندما أبلغته لم يثر كما كانت تنتظر.. سكت طويلا.. أنه منع عبدالرؤوف من دخول شقة الزمالك منذ بدأ شاكر يتردد عليها، وأقنعه أن مركز رئيس جمعية الحمد لله الخيرية الإسلامية لا يسمح بمشاركة المسئولين مثل هذه الليالى.. ولكنه لن يمنع خيرية.. الفتاة التى كانت فى يوم من الأيام حلما لا يتحقق، ثم أصبحت أمنية ليتزوجها، ثم ردم هذه الأمنية لأنها كانت تتعارض مع مصالحه.. ثم تركها لشاكر فى سبيل مصالحه .. والآن يقدمها للرجل المهم.. للبرنس.. لا يستطيع أن يرد له طلبا.. ورغم ذلك فهو دائما يشعر بمرارة وهو يترك خيرية لرجل آخر كأنه يضحى بشيء يملكه.. بقطعة منه. إنه دائما كان يريد لها لنفسه وكان يحرم نفسه منها.

وقال لسنية فى هدوء:

- اتصلى بها.. وقولى لها كل شيء حتى تستعـد.. وقولى

لها أيضا إننى موافق..

وجاءت خيرية إلى الغرزة.

وجاءت وهى تعرف لمن جاءت.

وهى من الذكاء بحيث تستطيع أن تقدم نفسها فى الصورة التى تختارها.. وقد اختارت أن تقدم نفسها فى صورة الفتاة الارستقراطية ابنة العائلة الكبيرة التى لم تؤثر الثورة على كبريائها وفى غرورها بنفسها.. وقد مرت فى تجارب مع هذه الطبقة الجديدة الحاكمة.. إنهم يشتهون الطبقة القديمة.. يشتهون بنات الباشوات والبكوات ونادى الجزيرة.. إنهم الشعب يسترد ما كان محروما منه.. كل ما كان محروما منه حتى بنات هذه الطبقة.. وأغلبهم محدود المعرفة.. لم يقرأ أكثر من مقررات المدارس.. ولم ير من المعالم أبعد من مقر بيته ووظيفته.. وهم يبهرون بالعلم.. يبهرون بالمعرفة.. وهم محرومون من تقاليد موروثة.. ويبهرون بكل ما يفرض عليهم تقاليد جديدة.. إن بعضهم يبهز عندما يصب له الجرسون الكاس.. ثم هذا النوع الراقى من النساء الذى كان غاليا عليهم.. إنهم يتصورون أنهن شئ آخر فى الفراش غير النساء اللاتى تعودوا عليهن.. لقد اكتشفت كل ذلك من معرفتها بعبد المنعم وبغيره من أفراد الطبقة الجديدة.

ودخلت خيرية بهذه الصورة إلى غرزة الزمالك.. وبهروا بها.

واليرنس يرفع إليها عينيه الطيبتين ويقوم من فوق الوسادة التى يجلس عليها ليصافحها.. لم تكن هذه عادته عندما يستقبل باقى النساء.. والمطربة فتحية تلتقطها بعينها

فى فرحة لا تلبث أن تنقلب إلى غيظ.. إنها ستستولى على الجو كله، ولن يبقى لها شىء.

وقال البرنس:

– الليلة نسمع فتحية ترحيبا بخيرية.

وهذات فتحية.. إنها لن تفقد مكانتها فى الغرزة وإن كانت ستقتصر على أن تكون مطربة الغرزة بعد أن كانت أهم امرأة فيها.. المهم أنها فى حماية شاكر ومن فوقه حماية البرنس.. ولن تستطيع خيرية بكل جمالها أن تحرمها من وجودها.

وخيرية دائما جالسة بجانب البرنس.

وكل ما بينهما نقاش تشترك فيه الشلة كلها.. نقاش تعتمد فيه خيرية أن تدخل فيه كل ما قرأته وكل ما تعيه ذاكرتها مما سمعته حتى تبدو مثقفة.. من طبقة الانتلجنسيا التى لم يصل إليها كل من حولها.. والبرنس مقتنع فعلا أنها مثقفة وأنها جميلة وأنها من عائلة.. ولكنه لا يقربها.. مضى أكثر من شهرين دون أن يحاول أن يأخذها وإن كان قد بدأ يحتفظ بيديها فى يده أحيانا أو يربت على كتفها أو يطيل ضمها بين عينيه.. إلى أن قال مرة ضاحكا خلال إحدى مناقشاتهما الطويلة :

– الطريقة الوحيدة لإسكاتك هى أن أتزوجك.

وسكت الأصدقاء كلهم فى دهشة.

وسكتت خيرية برهة.. ولما كان البرنس هو أحد الرجال الذين لا يقربون المرأة إلا فى الحلال.. ثم قالت فى لهجة جادة :

– أرجوك.. الزواج ليس كلمة تقال.. لا تخرجنى بأن

تشعرنى أنى لا أسمع إلا كلام الحشيش.

وقال البرنس :

- ليس كلام حشيش إنى أطلبك للزواج.. هل توافقين..

وقبل أن يسمع ردها التفت إلى شاكر قائلاً :

- شاكر.. استدع المأذون.

وتردد شاكر ثم نظر إلى فهمى قائلاً :

- ثم ابحث عن مأذون يا فهمى..

وهللت الشلة كلها فرحاً.. مادام البرنس يريد الزواج فيجب

أن يهللوا فرحاً. وقال شاكر وهو يقترب أكثر من البرنس:

- مادام كده.. تسمح لى سيادتك أنى أتزوج فتحية..

ودمعت عيناً فتحية فرحاً.

وعاد فهمى بالمأذون.

وزغردت سنية.. وغنت فتحية لنفسها ولخيرية أغنية

مبروك عليك عريسك الخفة.. غنتها فى صوت هامس.

وكانت الساعة الرابعة صباحاً.. وقام البرنس ليعود إلى

بيته العائلى.. بيته الرسمى.. وقال لزوجته خيرية:

- تعودين كالعادة بسيارتك وغدا نتفق على المستقبل..

وطبعاً المستقبل سر لا يعلمه إلا الله.. كل حاجة من الليلة

سر.. طبعاً مفهوم.

وفهمت خيرية أن البرنس يقصد أن يبقى زواجهما سراً..

وخرج البرنس.. وخرج جميع الأصدقاء.. وبقيت خيرية..

إنها تريد أن تتفق مع فهمى على تفاصيل مستقبلها.

- إنه دائماً محامى العائلة.

وبكل هدوء شدها فهمى من يدها وأرقدها فوق الفراش،
وهى مستسلمة فى دهشة.

وكانت أول امرأة يأخذها فى حياته.
أخذها كأنه يودعها إلى الأبد

أخذها وهو يشعر بإحساس الشماتة الريفية.. لقد أخذ
زوجة البرنس.. إن شخصيته كاملة إنه لا يعطى إلا ما لا
يريده.. لا أحد يستطيع أن يأخذ شيئاً لا يريد إعطاءه.. حتى
البرنس.. وربما أراد ليلتها أن يذل خيرية بعد أن أصبحت
زوجة البرنس حتى لا تحاول أن تنمرّد عليه أو تستهتر به أو
تظن أن من حقها أن تعامله كأنها زوجة البرنس.. أراد أن
يضعها فى مكانها الحقيقى وقبل ليلة الدخلة.. إنها واحدة من
هؤلاء النساء حتى لو تزوجت البرنس.

وقالت خيرية فى لهجة ساخرة بعد أن تركها :

— كنت فىن من زمان.

وقال فى استهتار :

— ماكانش لى مزاج.. من هنا ورايح حاتبقى مزاجى.

وقالت من خلال ابتسامة ملتوية كأنها بصقة :

— بس يا خسارة.. أنا بقيت صعب.. صعب قوى.

وقال فهمى فى تخذ :

— ماتصعبيش على يا خيرية.. ده عمر طويل.. وضحكت

ضحكتها الساخرة وتركته وخرجت.

وقرر البرنس أن تقيم زوجته فى الشقة العليا بعمارة
الزمالك.. فوق الغرزة.. إنها فى موقع لا يمكن أن يخطر على
بال أحد أن يتردد عليه أو أن له زوجة تقيم فيه.. وقد كان من

عاداته أن يقضى سهرات الليل وهو متخف فى زى بلدى..
جلايبية.. ومعطف.. وليس معه إلا حارس واحد يصاحبه
كصديق.. ومنذ بدأ يتردد على غرزة الزمالك وهو يعتقد أن
لا أحد أكتشف أمره.

وفى صباح اليوم التالى ذهب فهمى إلى خليل الغمرى ممثل
الشلة المضادة وأبلغه ما حدث.. وامتعض خليل وقال فى
أسى:

- ألم تكن تستطيع أن تمنع هذا الزواج..

وقال فهمى فى برود :

- أمنعه ازاي.. لقد فوجئت به كأنه قبيلة انفجرت فوق
رأسى.. وشاكر تزوج فى نفس الوقت من فتحية.. كأن الليلة
كانت مخصصة للزواج..

وقال خليل متحسرا :

- مسكين.

ولم يفهم فهمى كيف يكون البرنس.. البرنس نفسه.. كيف
يكون مسكينا.. كل هذا كيف يكون مسكينا.

- والأيام تمر.

وخيرية تقيم فى الشقة العليا وتشارك فى جلسات الغرزة..
وهى دائما الملكة.. ودائما فى صورة ارسقراطية الانتلجنسيا،
وكانت تتعمد أن تقرأ كثيرا وبدأت تقرأ فى موضوعات لم تكن
تهمها إنما هى تهم البرنس، حتى تتباهى عليه بثقافتها
وتعرضها فى الغرزة كأنها تلقى فى كل ليلة درسا.

وفهمى منذ فض بكارة رجولته أصبح يحس بنفسه فى
حالة جديدة.. إنه يريد فى كل ليلة امرأة.. حاسته الجنسية

تبقى بعد عمر طويل نامت فيه.. ولكنه كان قد غير رأيه بالنسبة لخيرة.. إنه لن يأخذها مرة ثانية.. لن يأخذها إلا إذا طلبته.. إن نكاهه يحتم عليه أن يعاملها كأنها هي الأقوى.. وهى فعلا أصبحت الأقوى فى السيطرة على الغرزة وخير لها وأبقى أن يستسلم لها.. إنه ينتظر أن تأمره أن ينام معها.. ولكنها لا تأمره بشيء من هذا.. لا تريده.. إنها أصبحت تتعامل معه على أنه محامى العائلة وكانت فى حاجة إليه حتى يدلها على ما تستطيع أن تخرج به من هذه الزيجة.. يجب أن تخرج بشيء.. إنه زواج ليس له عمر.. قد يطلقها البرنس غدا أو بعد غد.. أو قد يشده أصدقاؤه إلى غرزة أخرى.. ويجب أن تحسب حسابها من اليوم.

ونصحها فهمى فى لهجة الأستاذ الخبير وهو محتفظ بقامته الطويلة وصدرة العريض أن تركز على جمع الهدايا.. هدايا البرنس.. والهدايا لا تتوقف.. جواهر.. الماس.. ذهب.. والتقطت خاتما كان البرنس قد وضعه فى أصبعها ليلة أمس وقالت وهى تزغلل به عيني فهمى :

— أنا متأكدة إنه خاتم الأميرة نسل شاه.. رأيته فى أصبعها زمان فى إحدى حفلات الأميرة شويكار.

وفى يوم آخر استدعت فهمى إلى الشقة العليا.. وفتحت أمامه حقيبة مكسدة بالدولارات الأمريكية وقالت فى لهجة الملكات:

— حملها إلى البرنس.. قال إنه يطمئنى بها على مستقبلى.. ولا أستطيع أن أقدركم دولارا فى هذه الحقيقة.. عدهم لى من فضلك.

وبدا فهمى يعد ولكنه بعد دقائق جمع الدولارات داخل
الحقيبة وأغلقها وقال فى حدة :

- أنت لست فى حاجة إلى عدها الآن.. احتفظى بالحقيبة
كما هى إلى أن تحتاجى إليها.

وقالت فى رجاء :

- أريد أن احتفظ بهذه الدولارات فى الخارج.

وقال الأستاذ :

- يا عبيطة.. إن الداخل أكثر أمانا من الخارج أى عملية
تهريب ستكشف وأى حساب لك فى أى بنك فى الخارج
سيعرف.. إن كلا منهم يعرف عن الآخر كل شيء.. احتفظى
بالحقيبة تحت السرير فى سذاجة وبراءة.
وهزت رأسها موافقة.

ووقفت لعلها تتعلق به.. تدعوها إلى جسدها.. ولكنها
لا تغريه ولو بإشارة وكأن كل ما سبق أن حدث بينهما
لا تذكره.. مجرد دور فى لعبة الطاولة.. وهى لم تعد تريد أن
تلعب الطاولة معه.

ورجولته التى أيقظتها تعذبه إلى حد أن فكر أن يدعو سنية
إلى فراشه.. لا.. إن المرأة التى ترفعه عنها وهو لا شيء
لا يمكن أن يقبلها على نفسه بعد أن أصبح كل شيء.

والغرفة تجتمع معظم ليالى الأسبوع.

وحشيش الغبار الثقيل الغالى يتكدس دخانه بين الجدران
الأربعة وكلهم فى منتهى درجات السلطنة.. وخيرية تقول
كلاما بالفرنسية لا يفهمه أحد.. وقال شاكر فجأة فى صوت
مسطول :

- دعونا نحارب اليهود.
وقال فؤاد مرزوق وهو ينفث الدخان من صدره:
- فاكربين القعدة اللي قعدناها نحارب فى اليمن..
وقال عباس رفقى :
- كانت قعدة متعبة.. قعدت بعدها يومين وأنا محرم على
نفسى الحشيش.
وقال شاكِر :
- بس ليلتها كانت الحتة ممتازة.. مافيش زى تعميرة
اليمن.. ولا إيه يا برنس..
وقال البرنس فى صوته المهذب الخفيض :
- أنا موافق.. تعالوا نحارب اليهود.
وقال عباس :
- نبتدى نحرك الدبابات وتطلع لغاية رفح.
وقال شاكِر :
- الطيارات تتحرك الأول.
وقال البرنس فى هدوء :
- ماتحركش الطيارات إلا بعد ما نطمئن على موقع
الدبابات.
وقال فؤاد مرزوق :
- ما تنسوش الممرات يا جماعة.. ممر الجدى.
وقال شاكِر ضاحكا :
- جدى إيه يا تور.. إيه اللى حيوصل اليهود للممرات.
وقال البرنس مبتسما :

- تروح أنت يا فؤاد تمسك العريش.
وقال شاكر ضاحكا :
- ما تسيبوه معانا يا برنس.. القعدة ما تستغنash عنه.
وقال عباس رفقى وشفته تتطلعان إلى غابة الجوزة :
- دعوه يذهب إلى العريش.. الشلاجات فى غزة بتراب
الفلوس.. يرجع بكام تلاجة وكام تليفزيون.
وضحك الجميع وصاح شاكر :
يا فهمى.. قول للواد عوض يغير الحجر.
وقال البرنس ضاحكا :
- نبعت عبدالعزيز الخربطلى هناك علشان نخلص منه.
وقال عباس :
- ده طالع فيها.. وحايعمل بطل.
وفهمى يسمع ويحفظ ما يسمعه كأنه يقرأ قصة مثيرة.. إنه
الوحيد بينهم الذى لا يعتبر مسطولا.. ودخان الحشيش
المكسد فى فضاء الغرزة لم يعد يؤثر فيه.. وقال كأنه يريد أن
يثبت وجوده :
- وأنا يا جماعة.. خدوني معكم.
وقال شاكر ضاحكا :
إنت تكتب البيان.. اكتبه بالعبرى علشان يفهمه اليهود.
وقال عباس مرددا ضحكة شاكر :
- أنا نفسى إنك تقعد تآلف كتاب بعنوان أثر الحشيش فى
التاريخ المصرى.. إيه رأيك.. ده الحوحو مهم جدا فى التاريخ.
وتأثر البرنس وقال :

- نأجل الحكاية لبكرة يا جماعة.. كفاية كده الليلة.. ثم التفت إلى شاكر قائلاً :

- اضرب تليفون وقول لهم إنى حسابات فى المكتب..
تصبحوا على خير.

ولف ذراعه حول خيرية وصعد بها إلى فوق..
وغاب البرنس عن الغرزة وعن خيرية مدة طويلة.. شهر
وهى وفهمى فى انتظاره كل يوم.. إلى أن فاجأهما بعودته.
وعاد كل شىء كما كان.. ولكن البرنس يبدو أكثر إنهاكا
وتعبا وجهه ممقوت وخطواته بطيئة يكاد يترنح بها.. وهو
يطلب الجوزة منذ الصباح.. لم تكن هذه هى عادته.. كانت
الجوزة مخصصة لجلسات المساء فقط وليس مساء كل يوم..
أياما كثيرة كان يقضيها البرنس بعيدا عن الجوزة مكتفيا
بخيرية.

واجتمعت الغرزة كما كانت تجتمع.. نفس أفراد الشلة..
ودارت الجوزة طويلا وهم أقرب إلى الصمت إلى أن قال شاكر
وقد لمع الحشيش فى عينيه كأنه سحابة من ضباب :

- ما تيجى نكمل حكاية الحرب مع اليهود.
وقال البرنس بسرعة :

- لا.. شوفوا لنا حكاية ثانية.

وقال عباس رفقى وهو يضحك :

- زمان لما كانوا بيحاربوا فى فلسطين كانوا بيقولوا إن
المعركة يجب أن تبدأ فى القاهرة .

وقال فؤاد مرزوق :

- إزاي تبدأ بأه يا سى عباس.

وقال عباس :

- دى بسيطة.

وقال البرنس وهو يطلق أنفاسا متعبة :

- القاهرة يا جماعة ما بقتش تستحمل معارك.. كلمتين كفاية عليها.. كلمتين وكل حاجة تتغير وتتصلح.

والاصوات الكسولة تستمر فى المناقشة بين أنفاس الجوزة: وفهمى بينهم لا يتكلم ويستمع ويحفظ كل كلمة.. إنه غير مطمئن إلى هذا الكلام.. كلام يودى فى داهية إنه كلام حشيش .. ولكنه يعرف أثر الحشيش فى التاريخ المصرى كما قال عباس فى الجلسة السابقة .. وصدره يضيق ووجد نفسه يقوم ويفتح الشباك وصاح شاكر :

- حاتطير النعمة ليه يا فهمى.. اقفل الشباك..

واقفل الشباك حتى لا يطير الدخان.

واستمر يسمع ويحفظ إلى أن انفضت الجلسة وخرج الجميع من الغرزة.

وفهمى لا ينام.

إنه خائف.

خائف على نفسه لا على أى شىء آخر.

وفى الصباح ذهب إلى لقاء خليل الغمرى ممثل الطرف الآخر وأعاد عليه كل ما سمعه.. وتلقى خليل كلامه باهتمام شديد وبقي فترة صامتا ثم قال وعلى شفثيه ابتسامة مفتعلة :

- ده كلام حشيش.. ما حدش يصدقه.. ولا يهمك.

وخرج فهمى من مكتب خليل وهو حائر.

شيء على وشك أن يحدث.

- إنه يصدق إحساسه بأن شيئاً لابد أن يحدث.. وبعد أيام اختفى البرنس.. ودار فهمى يلتقط الأخبار.. أين البرنس.. ربما اعتقل.. أو ربما عين سفيراً لمصر فى دولة أفريقية كما حدث لعبدالمنعم.. ولكنه اختفى.. وفهمى واثق إنه سيبقى مختفياً وسيختفى معه شاكر وعباس وفؤاد وبقية الشلة.

وعاد فهمى إلى شقة الزمالك وأرسل سنية إلى الشقة العليا تستدعى خيرية.. وجاءت خيرية فى صورة جديدة.. إنها ليست المرأة الأرستقراطية المثقفة المتعالية.. إنها صورة امرأة بكل ما فيها من أنوثة يمكن أن تقدمها لرجل.

وقالت خيرية وهى تسقط جالسة فوق ساقى فهمى !
- تأخرت.. انتظرتك طويلاً.

وقال فهمى وهو يزيحها من فوق ساقيه :
- أريدك أن تصحبى سنية وتصعدى إلى الشقة العليا وتعود بحقيبة الدولارات.

وقالت خيرية وهى تحاول أن تكبت غيظها :
- لماذا ؟

وقال فهمى :

- إنك فى خطر.. سأقول لك كل شيء.. أحضرى الحقيبة أولاً .

وقالت فى دلال :

- إنها فى مكانها وتحت أمرك.. دعنا الآن لما هو أهم من مليون دولار.. واحشنى يا فهمى.. فاكر ليلة زواجى من البرنس.. لقد أخذتنى ليلتها وقلت إنك كنت فى حالة مزاج..

ماذا جرى لمزاجك ؟

وصرخ فهمى ينادى سنية :

- سنية.. أصعدى إلى الشقة اللى فوق وعودى بالحقيبة
التي ستجدينها تحت السرير..

وقفزت خيرية صائحة :

- انتظري.. سأصعد معك.

وعادا بحقيبة الدولارات.. وفتحها فهمى فوق الفراش
وخيرية جالسة قبالة عارية الساقين وثدياها يطلان من فتحة
ثوبها لعلها تأخذه من الدولارات.

ودق جرس التليفون .

إنه خليل الغمرى يريد حالا.

وأعاد الدولارات داخل الحقيبة وأغلقها وحملها إلى دولا به
وأغلق عليها بالمفتاح، وخرج يجرى إلى لقاء خليل الغمرى.

واستقبله خليل بترحاب كبير، وقبله على وجنتيه وأجلسه

وهو يقول :

- إنك صاحب فضل كبير فى كل ما حدث.. كنت أول من

أبلغنا بكل شىء.. وهناك وزارة جديدة تؤلف حاليا وقد طلب

منى أن أعرض عليك دخول الوزارة.. أن تكون وزيرا..

وصاح فهمى كأنه أصيب بطعنة :

- لا .. أعمل معروف.. أنا كده كويس.. أنا لا عايز أبقي

وزير ولا أصلح لأن أكون وزيرا.. أعمل معروف بحق الصداقة

اعفينى من هذا العرض.. إنه يشرفنى رضاؤكم عنى.. ولكن

لا تجعلوا منى وزيرا.. حرام.

وضحك خليل قائلاً :

- خلاص.. كما تريد.. ويبدو أنك نبيه فأنت تعلم أن كل وزير لا يلبث أن يكون وزيراً سابقاً.. إنك رجل تفكر في مستقبلك.

وقال فهمي في ابتسامة سعيدة :

- ومستقبل البلد أيضاً ورحمة أمي.

وقال خليل :

- سأبلغ اعتذارك.. واعتبر إنه اعتذار مقبول.

وتنهذ فهمي في راحة.

وخرج يجرى إلى شقة الزمالك وفتح الدولاب وأخرج الدولارات.. وأخذ يعد الدولارات.

أفلام خافية فوق البحر

كلمة

كاتب القصة غير المؤرخ .. إنه يستطيع أن يطلق خياله في التاريخ ويصوره كما يريد .. إنه حر .. يرسم شخصيات الحادث كما يصورهم خياله ويحركهم كما يشاء ويضع على ألسنتهم ما يريد من آراء .
ومع اعتزالي وفخري بالأبطال لهذه القصة ، أرجو منهم أن يعذروا خيالي .

إحسان

كان ذلك فى شهر مايو عام ١٩٦٧.. والمركب
« علم الروم » يدخل إلى شاطئ شرم الشيخ
على قمة خليج العقبة.. إنه مركب صيد صغير
لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، والرئيس جادالله
يقف معلقا فوق سارى المركب يتفرج على شرم الشيخ كأنه
يراهما لأول مرة.. إنه شاب قد لا يتجاوز الثانية أو الثالثة
والعشرين من عمره، ووجهه الوسيم الهادئ الأسمر لا تبدو
عليه لفحات المعاناة التى يعانىها الصيادون وأولادهم فى
معركتهم المستمرة مع السمك.. وكان يرتدى قميصا مهلهلا
فوق صدره العارى، وبنطلونا تاكلت أطرافه، وقدماه حافيتان
وإن كانتا لا تبدو فيهما شقوق الأقدام التى تعودت الحفاء.
واقترب المركب من الشاطئ وقبل أن يصل إلى مكانه
انطلق صوت عنيف من ناحية الشاطئ ومن وراء مدفع
صارخا :

إنزل وإلا أطلقت النار.

وصرخ الرئيس جادالله من فوق السارى :

- يا جدع إننا بلديات.

وعاد الصوت يصرخ :

- إنزل وإلا أطلقت النار.

ونزل جادالله من فوق السارى بسرعة واقترب من الرئيس محمد عويضة الذى يمسك قيادة المركب وأمره بإلقاء الخطاف رغم أنهم لا يزالون فى منتصف الخليج الصغير الضيق.. واستجاب عويضة فى استسلام دون مناقشة.. الرئيس عويضة فى الستين من عمره على الأقل ووجهه الأسمر الغامق مجعد بآثار عمر طويل قضاه فى معارك صيد السمك، وهو يرتدى الزى التقليدى المعروف لصيادى البحر وأولاد الشاطيء من بورسعيد إلى الغردقة، وكان يتلقى أوامر جادالله وهو ينظر إليه كأنه فرح به وبين شفثيه ابتسامة هادئة كأنه يحتضن بها ابنه.

ووقف المركب الصغير وسكت صوت آلات الموتور فى داخله، ونادى جادالله اثنين من الصيادين عاوناه على إنزال قارب الإنقاذ إلى البحر، واعتلاه الثلاثة فى طريقهم إلى الشاطيء.. إنه قارب قديم متاكل ما كاد يلمس البحر حتى بدأت المياه تتسرب إلى داخله وتكاد تغطس به وفيه إلى الأعماق.

ونزل جادالله إلى الشاطيء بأقدامه الحافية وقميصه المهلhel وبنطلونه المتاكل، وألقى الشاويش قبضته الثقيلة على كتفه وأمسك اثنان من الجنود بزميله، وقال جادالله فوراً :

- خذنى إلى حضرة القائد فوراً.

ونظر إليه الشاويش فى استخفاف قائلاً :

- إنى آخذك حيث أريد لا حيث تطل..

وقال جادالله فى صوت سريع كان الأمر خطير :

- الموضوع مهم.. من فضلك خذنى إلى حضرة القائد.

وقال الشاويش :

- الأهم من الموضوع هى الأوامر.. والموضوع عندك والأوامر عندى.

وسكت جادالله وهو يسير تحت القبضة الملقاة فوق كتفه ويتلفت حواليه كأنه يبحث عن أحد.

وعاد الشاويش يتكلم قائلا :

- يا ترى.. ماذ أوصلكم إلى هنا.

وقال جادالله :

- إننا نصطاد.

وضحك الشاويش ضحكة كبيرة وقال :

- والله زمان.. مضى سنين ولم يفكر أحد أن يصطاد فى هذه الجونة.. كنتم تصطادون من البحر أم من فوق البحر.. تصطادون سمكا أم شيئا آخر غير السمك .. كابوريا مثلا..

ولم يرد جاد الله.. واستمر سائرا تحت قبضة الشاويش وهو يتلفت حواليه.. إنهم جنود من فرقة الصاعقة.. لم يكن يدرى أن الصاعقة ترابط فى شرم الشيخ.. وانتهى به السير إلى أن وجد نفسه يدخل هو وزميله إلى ميس الضباط مقبوضا عليهم.. ووجد أمامه ضابطا كبيرا برتبة لواء لا بد أنه قائد المنطقة.. وبجانب اللواء ضابط برتبة عقيد.. وكان الاثنان فى حالة استرخاء وأمام كل منهم كوب شاي لم يكن يبدو أنهم يستقبلانه كهيئة محكمة أو أنهم يهتمان بأمره.. وروى الشاويش تفاصيل إيقاف المركب وإنزال الرئيس إلى الشاطئ.. مقبوضا عليه تحت التهديد بإطلاق النار.. وجادالله ينظر إلى القائد ثم ينقل نظره إلى الشاويش كأنه يريد أن يقول شيئا.. ولاحظ نظرات جاد الله.. وفهم.. فهم أن جادالله يريد أن يختلئ به وبالقيادة بعيدا عن الجنود الذين قبضوا عليه.. ورغم ذلك

أمر الشاويش بتفتيش جادالله ومن معه.. وتمت عملية التفتيش فى عنف وقسوة كأنهم يريدون أن يفتقوا تحت جلده.. وأخرجوا من جيب جادالله علبة سجائر كليوباترا وولاعة وبطاقة تحقيق شخصية عبارة عن ورقة قديمة تاكلت وضاع لونها وهى تحمل صورته واسمه.. محمود جاد الله.. ومهنته.. صياد.. وقلب القائد فى البطاقة ويطلق فى أوراقها طويلا.. ربما كان أهم ما لاحظته أن الصورة تبدو أجدر وأنظف من أوراق البطاقة وكأنها التقطت منذ أيام.. ورفع القائد رأسه من فوق البطاقة وأمر الشاويش وجنوده بأن يتركوا الصيادين الثلاثة وينصرفوا.. وما كاد الجنود يخرجون من باب الميس حتى اعتدل جادالله فى وقفته واتخذ وقفة عسكرية وقال فى لهجة رسمية .

— ملازم بحرى عبدالحميد مهران.

ونظر القائد إلى الضابط الذى يجلس معه كأنه يبحث عن وقع المفاجأة على وجهه ثم عاد والتفت إلى جادالله قالا :

— حدد .

وعاد جادالله يقول فى لهجة عسكرية :

— مجموعة القناصات.. مكافحة الغواصات.. ومكلف بمهمة.

وقال القائد :

— أوراقك .

ورد جادالله وهو لا يزال منتصبا فى وقفته :

— ليس معى أوراق إلا هذه البطاقة .

وابتسم القائد قائلا :

— هذه البطاقة هى التى جعلتنى أشك فى شخصيتك.. ولكن

الشك لا يكفى.. يجب أن نتأكد.

وقال العقيد :

- أعتقد أننا يجب أن نتصل بالقيادة البحرية.

وكان فى شرم الشيخ مركز قيادة بحرية بجانب مركز القيادة البرية.. وتم الاتصال بالقيادة البحرية لإيفاد مندوب عنها يحضر التحقيق.. وإلى أن يحضر لم يكف القائد والعقيد عن توجيه الأسئلة إلى جاد الله.. إلى أن قال العقيد :

- اسمع .. إن أخى هو المقدم بحرى فؤاد البنا وهو يتميز بشيء يعرف به.. فهل تعرفه.

وقال جاد الله :

- أعرفه وأتشرف بصداقته ويميزه جرح عميق فوق جبينه ناحية اليمين.

وقال العقيد فرحا :

- هذا صحيح.

وقام وصافح جاد الله ضاحكا وهو يقول :

- الحمد لله على السلامة.. تفضل.

وابتسم القائد أيضا وصافح جاد الله ودعاه للجلوس وطلب له شايًا وهو يسأله :

- هل على المركب أحد آخر من البحرية ؟

وقال جاد الله :

- عامل اللاسلكى فقط.. والبرنس عويضة وثلاثة من رجاله صيادون.. كل طاقم المركب ستة أشخاص بما فيهم أنا.

وجلس جاد الله يشرب الشاي.. وعاد زميلاؤه إلى المركب التى عادت ورفعت خطافها لتقترب من شاطئ شرم الشيخ.

كان جاد الله أو الملازم بحرى عبدالحميد مهران قد تخرج من الكلية البحرية عام ١٩٦٥ ومنذ كان صبيا وهو يعيش

البحر بخياله.. لم يكن يعيشه كعلم ولا كهواية ولكنه يعيشه كخيال لحياة منطلقة تسع العالم وينتقل فيها من ميناء إلى ميناء، فى كل ميناء مغامرة وحكاية وامرأة.. وقد حاول كمعظم العسكريين أن يهرب من خياله وأن يتمسك بروتين المظاهر المدنية التى تتباهى بها العائلات الكبيرة فقرر وهو فى الثانوية أن يلتحق بكلية الهندسة.. ولكن مجموع درجاته التى خرج بها لم تؤهله للالتحاق بالهندسة فأصر على الالتحاق بكلية البحرية واضطر والده أن يوافق على أمل أن يستطيع يوما أن يترك الأسطول البحرى ويصبح قبطانا لباخرة مدنية كبيرة.. إن قباطنة البواخر يحققون أرباحا كبيرة.. شئ آخر غير سائق القطار أو قائد الطائرة.. إن القبطان على باخرته فى مركز رئيس دولة.. ورؤساء الدول يستطيعون أن يأمرؤا بكل شئ وأى شئ حتى مع وجود مجلس الشعب أو المحكمة العليا الدستورية، أى حتى مع وجود الشركة صاحبة البخرة ومع وجود قوانين الملاحة وقوانين الجمارك.. كان هذا هو رأى والده.. ولكن عبدالحميد كان شيئا آخر.. كان ما يغريه بالبحر هو المغامرة.. شق الماء للوصول إلى الأرض .. شق الروتين الاجتماعى الذى يعيشه مع عائلته الكبيرة للوصول إلى المجهول.

وقد عرف بين زملائه بإقدامه الجرىء على كل مغامرة يتعرض لها.. كان من هواة العمليات الصعبة، وكان يبالغ فى صعوبة كل عملية حتى يرضى مزيدا من هواة المغامرة.. وربما لهذا اختار أن ينضم إلى مجموعة القناصات التابعة للسلاح البحرى والتى تتحمل مسئولية البحث عن غواصات العدو وتدميرها.. ولم تكن تبدو عليه أبدا روح المغامرة،

ولم يكن يتميز بطابع الشاب المغامر، فهو جاد فى عمله دائما، قليل الكلام، ووجهه الأسمر الوسيم الذى يرتفع فوق قامته الرفيعة لا يعبر عن شىء مما فى نفسه.. لا يضحك ولا يثور بل ولا يبتسم إلا نادرا.

وكان مغامرا أيضا فى حياته الخاصة ولكنه كان أيضا يضع مغامرات شبابه فى إطار جدى صامت.. لا يبدو عليه انطلاق الشباب فهو لا يتردد على المراقص والحانات ولا يكشف عن إعجابه بفتاة حتى لو كان يسعى إليها.. كل شىء فى السر.. وكل شىء مرسوم.. وهو لا يريد أن يتزوج.. إنه مقتنع بأن الزواج ليس مخصصا للبحارة.. كيف يحتفظ بامرأة وهو يغيب عنها شهورا إلى أن يعود إليها.. ما ذنبها حتى تتحمل هذه الشهور ثم من أدراها إنها تتحمل.. وإذا كان يقال أن للبحار امرأة فى كل ميناء فهذه هى الحياة الطبيعية للبحار.. وهذا ما يجب أن تقبله أى امرأة تريد بحارا.. أن تكون ميناء لهذا البحار ثم تتركه لميناء آخر.. وقد يعود إليها أولا يعود وقد يبتلعه البحر ليعيش فى القاع مع سمكة.. وكان يسمع عن كثير من أحوال زوجات البحارة فى غيبة أزواجهن وكان يعذرهن ولم يكن يلومهن على الخطيئة ولكنه كان يلومهن لأنهن تزوجن بحارة.. إن التى تتزوج بحارا مفروض عليها الصيام ثلاثة أرباع العام.. أى منطق يتحمل هذا.. إن المرأة إما أن تدخل الدير وتعيش الحرمان الكامل أو تتزوج رجلا يتحمل مسئولية إشباعها، أما أن تتزوج رجلا يفتح شهيتها ثم يعذبها بالحرمان فهذا حرام.

وكان هذا هو المنطق الذى يسيطر على كل علاقاته بالفتيات اللاتى التقى بهن فى الاسكندرية منذ أن عاش هناك

كطالب فى الكلية البحرية ثم بعد أن أصبح ضابطا بحريا.. كل
منهن فتاة ميناء.. وكل بلد يقيم فيه هو ميناء الاسكندرية أو
القاهرة ولم يكن قد ارتبط بالكثيرات.. ثلاث بنات كل منهن
عرفت أنه لا يتزوج فتركن مركبه.. تركن الميناء التى يرسمها
لنفسه مع كل منهن.. إلى أن التقى بزَيْنَب.. زيزى.. إنها تريده
كما هو وكما هى.. إنه لن يتزوج.. لا يهم.. وهو يغيب فى
البحر شهورا.. بل إنه سافر إلى روسيا فى مهمة دراسية
وغاب فيها ستة شهور.. لا يهم.. لن تسأله عن ليلاليه هناك..
ولم تغضب عندما لم يسألها عن ليلاليها هنا.. ولكن كان هناك
شئ لم يحسب حسابه.. لقد تعود عليها.. أصبحت زيزى
بالنسبة له ليست مجرد ميناء يرسو عليه.. إنها حياة تتكامل
مع حياته.. هل يتزوجها هذا البحار.. لا يدري.. وهى أيضا لا
تدري.. والمجتمع بدا يتهامس حولهما.. وأهله بدأوا
يواجهونه.. إنهم لا يريدونها.. لا تشرفهم.. وهو كعادته
صامت.. يترك الناس تتكلم ولا يتكلم..

إنه يعيش فى ميناء..

وزيزى ميناء..

وبيته ميناء..

والأرض ميناء..

وكل هذا الكلام كلام موانئ..

وما ينتظره دائما هو المغامرة..

والمغامرة لا تكون إلا فى البحر..

وتلقى الملازم ثان عبدالحميد مهران استدعاء من شعبة
العمليات فى السلاح البحرى.. وكانت القوات البحرية مع باقى
القوات المسلحة قد رفعت درجة الاستعداد ورغم ذلك لم يكن

أحد قد تأكد بعد أن الحرب ستعلن.. كانت الأغلبية تعتقد أن كل هذه الاستعدادات والتحركات فى القوات المسلحة هى مجرد مظاهر سياسية لتغطية قرار قوات الطوارئ الدولية الذى أعلنه جمال عبدالناصر.. ولم يكن عبدالحميد يشغل فكره بأى احتمال.. حرب أو لا حرب.. إن كل ما كان يشغل فكره هو البحث عن عملية تشبع فيه شهوة المغامرة.. وكان كل ما جدد عليه بعد رفع درجة الاستعداد هو أن زاد عدد فترات المرور التى تقوم بها مجموعة القناصات.

لا شىء أكثر.. لا شىء جديد.

إلى أن استدعى إلى شعبة العمليات.

ووقف يتلقى الأوامر الجديدة.

إنه سيقوم بعمليات استطلاع لاستعدادات وتحركات العدو على طول خليج العقبة حتى ميناء إيلات.. وستتم العملية من فوق مركب صيد.. ومطلوب منه أن يصل بهذا المركب إلى ميناء إيلات أو على الأقل يصل من فوقها إلى تجميع وتسجيل كل التحركات التى تتم هناك.. وهو من الآن يعتبر مجرد صياد مدنى ليس من حقه أن يرتدى الزي العسكرى.. بل سلم بطاقته العسكرية وهو واقف فى مكتب شعبة العمليات.. لم يعد معه ما يثبت أنه ضابط بحرى.. وتفاصيل العملية ستسلم إليه فى السويس.

وانطلق عبدالحميد إلى بيته وفى صدره فرحة لا يبدو منها على وجهه ولا حتى مجرد ابتسامة كطبيعته فى إخفاء كل أحاسيسه داخل صدره.. إنها مغامرة.. مغامرة مثيرة.. مغامرة فوق مركب لم يجرب الإبحار بها ولا التعامل معها.. بل إنه إلى الآن لم يسبق له أن أبحر فى خليج العقبة ولا فوق مياه البحر

الأحمر كله.. وهو يعلم خطورة العملية.. إن مراكب الصيد لا يأخذها العدو أبدا بمظهرها، وفي حالة الحرب تعامل مراكب الصيد معاملة الأساطيل البحرية.. وكل الدول تستعمل مراكب الصيد والمراكب التجارية كمراكز تجسس واستطلاع حتى في أوقات السلم.. فإذا قام الأسطول الأمريكى مثلاً بمناورات انتشرت حوله مراكب الصيد والمراكب التجارية السوفيتية فى مظهر برئ كأنها مجرد مركب فى طريقها لطلب الرزق.. والعكس .. فإذا قام الأسطول السوفيتى بمناورات فعشرات من مراكب الصيد الأمريكية أو التابعة لأمريكا تلتف حوله.. وحتى دون أن تكون هناك مناورات ولا حتى احتمالات حرب، فإن القوات البحرية فى كل العالم تعتمد على مراكب الصيد فى عمليات الاستطلاع.. وربما لهذا تشدد الأزمات بين الدول حول تحديد نطاق المياه الإقليمية التى تحرم على مراكب الصيد تعديتها لا حماية للثروة السمكية وإنما حتى لا تعطى مراكب الصيد مجالا أوسع للتجسس قريبا من شواطئها .. وأكثر من ذلك.. أن الأعلام ترفع فوق مراكب الصيد الكبيرة فى أعالي البحار وكثير من المراكب التجارية كلها أعلام كاذبة.. ومعظم الأعلام التى ترفعها المراكب التجارية الإسرائيلية أعلام كاذبة .. ليست أعلام إسرائيل.. إنما أعلام الدول الصغيرة فى أفريقيا أو أمريكا الجنوبية أو آسيا التى تبيع أعلامها للسفن التى تطلبها.

ووصل البيت وعقله مزدهم بالخطة التى يرسمها كأنه أصبح فعلا فوق مركب الصيد ووجد والده قد جاء من القاهرة لزيارته وقال له بسرعة :
- نقلت إلى السويس.

وابتسم الوالد فى راحة فقد جاء لزيارته خصيصا ليناقشه فى علاقته بزيى. يجب أن يبتعد عنها حتى يسكت الاشاعات.. وقد صدر قرار إبعاده عن زيى.. إنها لا تستطيع أن تلحق به هناك ومع الوقت ستموت الاشاعات.. وفرك الوالد يديه وهو يحمد الله.

وعبدالحميد خلع حلته العسكرية وارتدى قميصا وبنطلونا عاديين، وجمع بعض احتياجاته فى حقيبة صغيرة، ثم استأذن والده وخرج كما هو فى طريقه إلى السويس.. لم يتذكر زيى حتى ولو بمكالمة تليفونية.. وودع والده دون أن يقول له شيئا عن مهمته الجديدة.. أسرار.. وكل إحساسه أنه يبحر والمركب تغادر الميناء.

ورسا فى ميناء الوصول.

السويس.

وبدا يتلقى التعليمات التفصيلية لمهمته .. إن المركب التى سيبحر عليها يحمل اسم « علم الروم » وهو مركب صيد قديم متآكل لونه رمادى كالح ولا يزيد طوله على عشرة أمتار وله ساريتان وموتور يدور بالسولار ويملكه شيخ الصيادين الرئيس جاد الله.. وسيكون كل رجاله من رجال جادالله بمن فيهم الرئيس عويضة ما عدا عامل اللاسلكى ابراهيم المرجوشى فهو من رجال السلاح البحرى برتبة رقيب، وقد وضع فى داخل المركب جهاز لاسلكى من طراز روسى قديم، إن كل شىء فوق المركب يجب أن يحمل الطابع القديم حتى الخرائط ليس من حقه أن يحمل معه خريطة تفصيلية حديثة.. وليس من حقه أن يحمل بوصلة كهربائية وتكفى البوصلة المغناطيسية وتكفى آلة « السدس » التى يستعين بها البحارة

من قديم الزمان لتحديد الموقع.. لا شيء أكثر مما يعتمد عليه صغار الصيادين.

وقد تعرف بالرئيس جادالله وبالرئيس عويضة الذى سيبحر معه وعرف بقية أفراد الطاقم ولم يسترح إلى شخصية إبراهيم المرجوشى.. أحس أنه أقل صلابة وأكثر طراوة مما يجب أن يكون عليه من يتحمل مثل هذه العملية.. وقد بات ليلتها فوق المركب، وكان يريد أن يبقى عدة أيام قبل أن يبحر حتى يدرس طبائع الصيادين وحتى يتكلم لغتهم ولهجتهم ثم يدرس تفاصيل عملية الصيد.. إنه لم يصطاد فى حياته إلا بسنارة.. لا يفهم شيئاً فى صيد الشباك.. يجب أن يتقمص شخصية الصياد تقمصاً كاملاً حتى يتأكد من تضليل العدو إذا حدثت أى مواجهة فى الطريق.. ولكن العملية عاجلة.. يجب أن يبحر فى الغد.. وسألوه فى مكتب قيادة العمليات :

- هل سبق أن أبحرت فى خليج العقبة.

وأجاب ببساطة :

- لا.. إنى فى حاجة إلى خرائط تفصيلية.

وقيل له :

- لن تحمل معك خرائط.. اكتف بأ أن تكون دائماً فى وسط

الخليج.

وكأن هذا يكفى.

وأطاع الأمر وتسلم أوراق الشفرة التى سيتخاطب بها مع القيادة.. وقال للرئيس جادالله قبل أن يبحر وهو واقف معه يشرف على إعداد المركب ويدعو له بالتوفيق.

- سأعتبر نفسى إبتك وأحمل أسمك.. هل تسمح ؟

وقال الرئيس جادالله وهو يضحك فخورا :

- يشرقنى يا سى عبدالحميد... يشرفنا كلنا.. كل الصيادين.
وأبحرت المركب تحت قيادة الرئيس محمود جاد الله.. كما
أصبح أسمه الملازم عبدالحميد مهران.

وكان الرئيس جادالله قد اختار هذا القميص المهلل وهذا
البنطلون المتآكل وبدأ يعود قدميه على الحفاء وأطلق شعر
ذقنه ورأسه.. كأن هذا هو كل ما يستطيعه بالنسبة لنفسه
حتى يتخفى فى شخصية صياد.

ومنذ اليوم الأول وهو يعتمد اعتمادا كاملا على الرئيس
عويضة فى تأمين القيادة أى السير بالمركب فى الطريق
الصحيح.. وكان يقف أحيانا ويتطلع فى البوصلة ليحدد
الطريق بينما الرئيس عويضة لا يتطلع فى البوصلة أبدا.. إنه
يقود المركب فى البحر كأنه يقود سيارة فى شوارع القاهرة..
كل سر فى قاع البحر أو على جانبيه واضح أمام عينيه كأنه
يعرف أسماء الشوارع دون أن يحتاج إلى قراءتها .. وقال له
الرئيس عويضة وهو يلاحظ اهتمامه بالبوصلة :

- بوصلتى هنا.. فى المخيخ.

وجادالله يقضى أغلب وقته معلقا فوق السارى يراقب
ويستطلع وينتظر أى مفاجأة.. وينزل من السارى برهة ليحدد
موقعه للقيادة بالشفرة عن طريق اللاسلكى، أو ليجلس مع
رجال الطاقم حول صينية « المدفونة » ويمد أصابعه الخمس
ليكبش الأرز والبطاطس والسّمك الذى أصبح طعامه المفضل
منذ اعتبر نفسه صيادا ثم يعود بسرعة ليقف فوق السارى
لعله يرى شيئا.

والمركب الصغير يتحرك فوق الماء فى هدوء بطيء
وجادالله مبهور بالمشاهد الطبيعية التى تمر به.. الجبال

المتعددة الألوان وشعب المرجان وزرقة المياه الصافية وقفزات السمك كأنه فى رحلة على لنش سياحى يملكه مليونير.. إن نسبة الجمال فى البحر الأحمر وعلى شواطئه تزيد أضعافا على نسبة الجمال فى البحر المتوسط.. إنه بعد أن ينتهى من مهمته سيطلب أن ينتقل من مركزه فى الاسكندرية إلى أى مركز على البحر الأحمر.. هل تقبل زيزى أن تعيش معه على البحر الأحمر.. ويبتسم ساخرا من نفسه.. ليس من طبيعته أن يتخيل امرأة وهو فى البحر.. المرأة لا تخطر على باله إلا فى الميناء.. حتى لو كانت زيزى التى مضى عليه أكثر من عام وهو يرسو فوقها.. إن كل ما يجب أن يشغله هو الوصول إلى الميناء الجديد.. وعاد يبتسم ساخرا من نفسه.. ومريوم.. يومان.. وهو معلق على قدميه الحافيتين فوق السارى.. وكل اتصالاته بالقيادة تنحصر فى تحديد الموقع، ولكن المركب بدأ يتلقى اشارات لاسلكية لا يفهمها لا هو ولا إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى رغم أنها على نفس موجة الاتصال بالقيادة.. وكنتم تعجبه وحيرته.. والمركب تقترب من شرم الشيخ على الشمال ويستطيع أن يلمح على اليمين جزيرة صنافير.. وأرسل إلى القيادة يحدد موقعه ويبلغ أنه فى طريقه ليرسو فى شرم الشيخ.. ولم يتخذ أى إجراء آخر لتأمين نفسه.. لم يخطر على باله أنه فى حاجة إلى أى تأمين.. والمركب لا ترفع علما تعرف به.. إنها مجرد مركب صيد صغير والتعليمات تفرض ألا يرفع عليها أى علم.. كما لم يحاول أن يتصل بأى مركز حراسة على شاطئ شرم الشيخ.. يكفى أنه أبلغ القيادة الرئيسية.. إلى أن فوجيء بالمدفع الموجه إليه.. والصوت العالى يصرخ من فوق الشاطئ.. إنزل

وإلا أطلقت النار.

واعتذر له اللواء قائد القيادة البرية وهو جالس معه في
ميس الضباط وقال له إنه منذ عام ١٩٤٨ حدثت أكثر من
محاولة تسلل إسرائيلي إلى خليج شرم الشيخ وكلها كانت
تتستر في مراكب صيد، ولذلك كان يجب أن تتخذ الإجراءات..
وضحك العقيد قائلاً :

- كنا سنطلق المدافع ترحيباً بك .

وقال جاد الله وابتسامته تنضح بالحسرة :

- كنت أعتقد أنكم على علم بوصولي.. لقد أبلغت القيادة
وأنا في البحر.

وقال القائد في بساطة :

- لم يصلنا شيء.

وعندما وصل ضابط القيادة البحرية وصحبه إلى مركز
القيادة روى للقائد البحري خبر الإشارات التي كان يلتقطها
ولا يستطيع أن يفسرها.. وتركه القائد ربما ليجري اتصالاته
بمركز القيادة في السويس.. وعاد بعد أكثر من ساعة وقد
استراح وجهه وعلت شفتيه ابتسامة كبيرة.. لقد تأكدت من
شخصية الرئيس جاد الله.. وسأله :

- متى تسلمت قائمة الشفرة .

وقال جاد الله :

- قبل تحركي بساعتين.

وقال القائد وقد اتسعت ابتسامته :

- لقد تغيرت الشفرة في نفس اليوم فلم تستطع أن تفسر
الإشارات التي تتلقاها .
وذهل جاد الله.

كيف لم يبلغوه بتغيير الشفرة.

لا يهم .

إن كل مسئوليته محصورة فى مركب الصيد وليس من واجبه أن يتدخل فى مسئولية غيره أو يحاسب أحدا على مسئوليته.. وسلمه القائد الشفرة الجديدة بأمر القيادة الأعلى. وبقي ليلته فى شرم الشيخ.. إنها المرة الأولى التى يجد نفسه هناك وكان يتمنى أن يبقى حتى يكتشفها لنفسه.. حتى يعيشها كأي بحار يعيش الميناء الذى يرسو فيها.. وربما كان يتمنى أيضا أن ينطلق من شرم الشيخ إلى دير سانت كاترين القريب الذى يسمع عنه منذ كان صبيا.. ولكنه لا يستطيع.. وقضى الليل يطمئن إلى تجهيز مركبه الصغير بكل احتياجاته.. وعند الفجر أبحر.. وعند الظهر كان فى داخل خليج العقبة.. ويوم.. ويومان.. وكل شىء هادئ.

إن الإبحار فى خليج العقبة هو جنة الهدوء.. والمبدع الأكبر.. الله.. يبدع هناك فى رسم الأرض التى خلقها.. ويتفنن فى إلقاء الألوان على الجبال وعلى داخل أعماق البحر.. والرئيس جاد الله معلق بقدميه فوق السارى ويكاد ينسى شخصيته الجديدة.. شخصية رئيس مركب الصيد.. إنه يعود إلى شخصيته العادية التى تبهر بالجمال.. ولا شىء يثير انتباهه إلا هذا الجمال.. إن الخليج فارغ لا حركة فيه كأنه خليج مهجور أو كأنه طريق لم يكتشف بعد.. لم تمر به خلال كل هذه الساعات إلا باخرة تجارية واحدة.. وأبلغ عنها.. لا يمكن أن تمر باخرة بريئة فى خليج العقبة بعد أن سحبت

مصر قوات الطوارئ وبعد أن بدأت النقرات على طبول الحرب.

ولم يبق إلا بضعة أميال بحرية ويصل إلى إيلات.
إنه يستطيع أن يرى من بعيد أنوارها .
أنوار ميناء إيلات.

وميناء العقبة الملتصق بها تلمع فيه أضواء خافتة كأنها ظل
لأنوار إيلات.. وهو لا يستطيع أن يتقدم فى هذا الليل.. إن
تقدمه قد يوقظ العدو ويعرضه للخطر.

وعلى اليمين.. على الشاطئ السعودى .. ميناء آخر
يستطيع أن يرى أنواره .. قد لا يكون ميناء، ربما كان مجرد
نقطة لخفر السواحل السعودى.. إنه موقع ليس مسجلا وليس
له اسم على الخارطة التى سبق أن درسها.. لا يهم.
إن المركب الصغير يستطيع أن يرسو فى أى مكان سواء
كان ميناء أو مجرد ساحل.. المهم أنه مطمئن إلى أنه يرسو
على الشاطئ السعودى.

وطلب من الرئيس عويضة أن يتجه بالمركب إلى الأنوار
السعودية.. ووقف بأقدامه الحافية بجانب عويضة مبهورا به
وهو يتلوى بالمركب بين شعب المرجان الغائصة تحت الماء
وسأله فى دهشة :

- هل جئت إلى هنا من قبل.

وهز الرئيس عويضة رأسه بالنفى.. لا.. إنها المرة الأولى
التي يجتاز فيها هذا الخليج.

وقال جاد الله وهو لا يزال مأخوذا بانبهاره :

- كيف تقدر مسالك هذه التلال المرجانية.

وابتسم عويضة وأشار بأصبعه إلى رأسه وهمس :

- المخيخ.

إن « مخيخ » الرئيس عويضة هو بوصلته وهو مقياس
الأعماق فى أى مكان من البحر.
وخرجوا من بين مسالك المرجان وفجأة انطلق طلق نارى
من فوق رؤوسهم.

ولنش عسكرى سريع يتجه إليهم ووراءه لنش آخر.
وأمر جادالله بإيقاف المركب.. ووقف على سطحها بقدميه
الحافيتين وبنطلونه المتاكل وقميصه المهلهل وذقنه الطويلة
وشعر رأسه الذى أصبح يغطى قفاه.. ووقف ينتظر القادمين
وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة لا تخلو من مرارة.
إن المدفع الأول الذى وجه إليه كان مدفعا مصريا.
والمدفع الثانى.. هل هو مدفع سعودي ؟

اقترب اللنش المسلح من مركب الصيد « علم الروم » وهى راسية على الشاطئ السعودى بعد أن ألفت خطافها، واقترب اللنش الثانى والتصق بالمركب من جانبها الآخر، واطمأن جادالله عندما

تأكد أنها قوة سعودية، وكان قد حسب حساب كل شيء.. وأهم ما حسب حسابه هو أن يبرر دخوله إلى هذه المياه، ولهذا تعمد وهو يلقي الخطاف أن ينزع سلندر من موتور المركب حتى يقول إنه اضطر أن يلجأ إلى الشاطئ للإصلاح. وقفز ضابط القوة إلى سطح المركب وقفز وراءه أحد الجنود يحمل مترليوز وأخذ يخلق فى وجه جادالله ثم ينقل عينيه بين من يراه من طاقم المركب، وسأل :
- من أين ؟

وأجاب الرئيس جادالله وهو يبتسم مطمئنا كأنه يقدم جواز الأمان :

- من مصر.. وهذه المراكب مصرية.

وصرخ الضابط فى حدة :

- هذا ما قدرته.. رأيت على وجوهكم الإجرام.

وأشار الضابط بذراعيه فقفز إلى ظهر المركب كل رجال

القوة السعودية.. وأصبح على ظهر المركب الصغير ثمانية جنود مسلحين ويحيطهم قاريان مسلحان.. وتفرق الجنود يشهرون السلاح فى وجه كل واحد على المركب، حتى عlish الميكانيكى الذى كان من عادته أن يرقد نائما بجانب الموتور.. كان قد أوقف الموتور بعد إلقاء الخطاف وعاد ونام فضربه جندى سعودى بطرف بندقيته وانتفض مذعورا وجفونه ترتعش فوق عينيه.. كأنه يحلم.. إنه يعلم أنه ألقى الخطاف على شاطئ سعودى.. شاطئ صديق.. فما هذا السلاح الذى أيقظه.

وجمعهم الضابط وقفا على سطح مؤخرة المركب والسلاح موجه إلى صدورهم كأنه قرر إعدامهم بإطلاق النار.. وأخذ يمر عليهم واحدا واحدا وهو يبخلق فى وجه كل منهم.. والرئيس جادالله يقف صامتا هادئا لا يحمل وجهه أى تعبير، والرئيس يبتسم ابتسامة صغيرة ساخرة كأنه يعرف مقدما كل ما سيحدث، والرقيب إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى ترتعش خلجات وجهه وينظر إلى الضابط وجنوده كأنه يهم بالبكاء توسلا إليهم وعليش الميكانيكى بدأ يتنأب كأنه أوقف موتور عقله ويريد أن يعود إلى النوم.. و.. وصرخ الضابط فى وجه جادالله :

- لماذا أرسلكم عبدالناصر إلى هنا.

وقال جادالله فى هدوء :

- لم يرسلنا أحدا.. إنها مركب والذى الرئيس جاد الله.. وقد كنا نصطاد فى منطقة ذهب ثم عطلت الماكينة والتجأنا إلى النور الذى رأيناه نطلب مساعدتكم.

وقال الضابط ساخرا :

- مراكب الصيد لا تمر فى هذه المنطقة.. وعبدالناصر لا يصطاد إلا المصائب.. تعال معى.

وبدأ الضابط ومعه أربعة جنود يفتشون المركب قطعة قطعة.. ويقلبون كل ما عليها.. وينقرون فوق أخشابها ويمررون المجاديف تحت قاعها لعلها تخفى من تحتها شيئا.. وعلم جاد الله أنهم يبحثون عن وجود أسلحة وأن التهمة الموجهة إليهم هى تهريب السلاح.. وقال للضابط فى هدوء :

- لقد جئنا بأنفسنا حتى أنواركم ولو كان لدينا ما نهربه لما ألقينا بأنفسنا أمامكم.. وقال الضابط وقد بدأت حدته تخف

- من يدري إن لعبدالناصر حيلة ولا عيب لا تنتهى.. إنه يشتمنا فى بيوتنا عن طريق الإذاعة وربما أرسلكم إلينا أنتم أيضا لتخربوا بيوتنا.
الله يخرّب بيته.

وتحمل جاد الله.. إنه يجمع كل أعصابه حتى لا يثور.. إن مجرد سماعه اسم عبدالناصر من غريب دون أن يسبق بلقب الرئيس كأنها إهانة.. كأنها اعتداء على علم مصر.. خصوصا والذى يتكلم عسكرى وهو عسكرى.
وقال وهو يبتلع ثورة أعصابه :

- صدقنى.. عبدالناصر لا دخل له بنا.. إننا نسمع به فى بيوتنا كما تسمعون عنه فى بيوتكم ومنذ أيام لم أسمع عنه لأن ليس معنا راديو.. ونحن نسعى للرزق والرزق فى يد الله لا فى يد عبدالناصر.. هل يستطيع عبدالناصر أن يأمر السمكة

بأن تضع نفسها فى الشبكة.

وضحك الضابط قائلاً :

- من يدري.. إنه رجل الأعاجيب.

وضحك معه جادالله وقال :

- والله لو كان يستطيع لبقى كل منا فى بيته وطلبنا منه أن

يدعو السمك إلينا.

وعاد الضابط يضحك.. وجذبه جادالله من ذراعه قريباً من

ماكينة المركب وشرح له العطل الذى أصابها.. إنها مكونة من

اثنى عشر سلندر وقد نقصت واحداً.. ليس فيها الآن إلا أحد

عشر سلندر وهذا هو السلندر الناقص ملقى على الأرض، وكل

الآمل أن يجدوا عندهم قطعة غيار. سلندر سليم.. وقال

جادالله :

- إن الشاطيء السعودى هو أكرم شاطيء عربى وقد كنا

طامعين فى كرمكم.

وعاد الضابط يقول :

قل هذا الكلام لعبدالناصر لعله يؤمن مثلك بالكرم

السعودى.

ووقف الضابط أمام آلة اللاسلكى وتساءل بلا حماس :

- ما هذا.. ليس من عادة مراكب الصيد أن تحمل مثل هذه

الآلات.

وقال جادالله بلا مبالاة :

- إنها آلة لاسلكى وضعتها الشركة التى نتعامل معها حتى

ترسل إلينا مطالبها.. شركة مصايد الأسماك.

وقال الضابط ساخراً :

- مصايد الأسماك أم مصايد الحكام.

وانتهى تفتيش المركب.. ليس فيه ولا قطعة سلاح.. حتى ولا مسدس صغير يمكن أن يحمله الرئيس ليدافع به عن نفسه.. وكانت هذه هي التعليمات.. لا سلاح على المركب حتى يتوفر لها مظاهر التخفى إذا حدثت ووقعت فى يد العدو.. واستراح الضابط السعودى ثم دعا الرئيس جادالله ورجاله إلى النزول معه إلى الأرض حتى يأمنهم بينما يبحث لهم عن قطعة الغيار التى يحتاجون إليها.. وفى لمحات سريعة قدر جادالله أنه فى قرية صغيرة أو مضرب خيام أقرب إلى قرية رأس محمد الواقعة على الجانب المصرى لسيناء، وربما كانت مركزا للحدود يتبع ميناء الحمضية السعودى الذى يقع على خليج العقبة.. وفى لمحات أخرى استطاع أن يقدر القوة البحرية الصغيرة والقوة الأرضية التى التقطتها عيناه.. ثم التقوا كلهم حول موقد يشوى عليه خروف تحضيرا لوليمة العشاء الذى يدعوهم إليه قائد المركز.. وجادالله ساهم يعيد قياس تخطيط المهمة المكلف بها إنه الآن على بعد ساعتين فقط من ميناء إيلات وميناء العقبة.. إنها مسافة يمكن لأى زورق صواريخ أن يقطعها فى دقائق.. أى ليس بين الساحل السعودى والساحل الإسرائيلى سوى دقائق ورغم هذا فإن السعودية لا تعتبر نفسها دولة مواجهة.. ربما لأن ميناء العقبة تفصل بين حدود إسرائيل وحدود السعودية.. ولكن ميناء العقبة لا تعتبر فاصلا إن عرضها كحاجز لا يتجاوز عشرة كيلومترات حتى لا تحمل مسئولية الحرب المباشرة.. إنهم اذكاء.. ليس عبدالناصر هو أذكى الحكام العرب.

وأفاق جادالله والضابط السعودي يسأله فى صوت مرح :
- كان أشد ما أثار شكوكى أنكم استطعتم أن تجتازوا
شعب المرجان وأنتم فى طريقكم إلينا.. وقد بحثت عند
تفتيشكم عن خارطة بحرية يمكن أن تكونوا قد اعتمدتم عليها
ولكنى لم أجد شيئاً إلا خارطة قديمة ليس فيها ولا مجرد
إشارة إلى الموقع.. كيف استطعتم.. هل معكم أحد سبق أن
أبحر إلى هنا.

وقال جادالله وهو يفتعل المرح :

- معنا الرئيس عويضة.. لقد ولد فى البحر الأحمر من أبناء
الدرافيل وهو يؤمن الطريق ويحرك دوما المركب كأنه يحرك
ذيل سمكة.. كأنه يرى تحت الماء.. إنه لم يسبق له أن أبحر
إلى هنا ورغم ذلك لم يشعر أنه يمر فى طريق غريب عليه.
وابتسم الرئيس عويضة وأشار إلى رأسه.
المخيق.

وقال الضابط وهو يتحسر :

- والله يا مصريين أنتم عباقرة فى كل شىء لولا
عبدالناصر.

وكنتم جادالله أعصابه كأنه يخنقها بيديه وهو يسمع إهانة
توجه إلى علم مصر، ومد أصابعه الخمسة والتقط حفنة من
الأرز قذف بها فى فمه.. وقد عاد يرسم فى خياله طريقه..
الأفضل أن يتحرك من هنا فى الساعة الخامسة صباحا حتى
يصل أمام ميناء العقبة فى مواجهة إيلات بعد اجتياز الفجر
وطلوع الشمس.. ويرفع رأسه ويشترك مع مضيفه فى حكاية
أو فى سؤال، ويلوى شفتيه امتعاضا وهو يرقب نفاق إبراهيم

المرجوشى لكل من حوله من الجنود السعوديين وكأنه يشحن
منهم رضاءهم عنه ويضمن لنفسه السلامة من بين أيديهم
واعتذر ضابط المركز.. لم يجدوا قطعة الغيار التى تصلح
للمركب.. وقد وجدونها فى ميناء العقبة.

أوصاهم القائد أن يبحروا إلى العقبة، وكأنهم يبحرون
تنفيذا لطلبه لا تنفيذا للخطة.

والساعة الخامسة.. والمركب تتحرك.. وعويضة يترقص
بالمركب بين شعب المرجان إلى أن خرج بها إلى بحر الأمان..
وجاد الله لا يتعلق بقدميه الحافيتين فوق السارى، ولكنه يتحرك
فوق السطح مع الصيادين ويشغل نفسه بتحريك الشباك
والتظاهر بالعمل كمجرد تغطية لنفسه وهو يقترب من أرض
العدو.

ورأها بعينيهِ المجردتين.

رأى إيلات.

إننا المرة الأولى التى يرى فيها العدو فوق أرضه.

والعقبة.

إن النظرة الواحدة يمكن أن تجمع بين العقبة وإيلات..
كأنهما مدينة واحدة.. الفاصل بينهما فراغ لا يتجاوز عدة
أمتار.. كيلومتر واحد.. وليس بينهما حتى علامات واضحة
مميزة للحدود... إن بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية
حائطا.. ولكن ليس هناك حائط بين العقبة وإيلات.. ورغم ذلك
فالفارق بينهما كبير..

إيلات تبدو مدينة تنحدر فوق تل من القمة حتى ساحل
البحر وكأنها لوحة فوتوغرافية معروضة أمامك تستطيع أن

تراها بكل شوارعها وكل بيوتها.
والعقبة تبدو كأنها ضاحية سياحية لهذه المدينة.
وتوقف جادالله عن إطلاق عينييه فوق أرض العدو على
صوت محركات لنش حرس السواحل الأردنى يقترب منه.
وقفز الضابط على ظهر المركب وبدأ السؤال :
- من أين ؟
- من مصر.
وابتسم الضابط ابتسامة كبيرة وقال بصوت فرح :
- أهلا وسهلا.. لماذا لا ترفعون العلم.
وقال جادالله وهو متعجب من كل هذا الترحيب الذى
استقبل به :
- ليس لدينا علم حتى نرفعه.. إنه مركب صغير ولم تتعود
رفع الأعلام.
وطاف الضابط بعينييه فوق وجوه رجال المركب واتسعت
ابتسامته كأنه تأكد أنهم كلهم مصريون، ثم خطا فى جوانبها
كأنه يقوم بعملية تفتيش وتوقف برهة سريعة أمام آلة
اللاسلكى دون أن يعلق بشيء.. ثم ترك المركب لأحد
المرشدين ليصل بها إلى مكانها من الميناء.
وكان المرشد عونى الأيوبي أكثر فرحة وترحيبا بالمركب
المصرى رغم أنه لا شيء سوى مركب صيد صغير لا يزيد
طوله على عشرة أمتار.. وانطلق فى حديث لا يتوقف مع
الرئيس جادالله ومع الرئيس عويضة الذى يقف بجانبه على
الدومان يقود المركب.. ومن خلال الحديث فهم جادالله سر كل
هذه الفرحة وهذا الترحيب.

لقد انضمت الأردن إلى اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر وسوريا.

أصبحت مع مصر فى موقف واحد.

ولم يكن على المركب راديو لسمع هذه الأنباء ولكن لماذا لم تبلغه القيادة بهذا التطور وهى تعلم أنه يدخل ميناء العقبة الأردنى.. ربما كان قد فكر فى خطة أخرى يدخل بها.. لا يهم.. إنه الآن مسئول عن نفسه بعيدا عن القيادة.

وأصر جادالله على أن يرسو بمركبه بين مجموعة من مراكب الصيد والمراكب التجارية الصغيرة حتى يتستر بينها ولا يثير اهتمام إسرائيل.. وكان يطلب من المرشد عونى كأنه يلقي أمرا وعونى يتلقى الأمر فى فرحة.

وكان المفروض بمجرد أن ترسو المركب وطبقا للقوانين البحرية فى الحالات الاستثنائية أن تقفل كابينة اللاسلكى ويختم بابها بالشمع الأحمر ولا تفتح إلا بعد أن تترك المركب الميناء حتى يكون كل اتصالاتها بالخارج عن طريق لاسلكى الدولة نفسها.. ولكن لا أحد اهتم بلاسلكى المركب « علم الروم ».. لا الضابط ولا المرشد.. كأنها مركب تابع للأسطول الأردنى.. وربما كان الضابط والمرشد قد فهما سر هذا المركب الصغير دون أن يفصحا عن شىء ودون أن يكون جادالله قد كشف لهما عن شىء.

وبمجرد أن ألقى الخطاب اتخذ جادالله مكانا فوق المركب يستطيع منه أن يرى إيلات كلها دون حاجة إلى منظار معظم.. وأخذ من اللحظة الأولى يسجل مراكز الدفاع حول الميناء ويسجل كل ما يلتقطه من تحركات برية وبحرية وجوية.

لا يمكن أن تكون كل هذه التحركات مجرد تحركات عادية روتينية.. إن هبوط وصعود الطائرات لا يتوقف.. وعدد السيارات واللوارى التى تدخل وتخرج أكبر من أن تحتاج إليه حالة عادية.. والقطع البحرية الصغيرة التابعة للأسطول الإسرائيلى لا تتحرك ولكن كل شىء فوقها يتحرك.. إن درجة الاستعداد التى أعلنتها إسرائيل فى إيلات أعلى من درجة الاستعداد التى أعلنت فى الإسكندرية أو فى باقى الموانئ المصرية.

وهو يرسل كل ما يلتقطه إلى القيادة بالشفرة.. وإبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى لا يترك مكانه.

لقد أمر جاد الله كل طاقم المركب بعدم النزول إلى البحر. وفى الليل التف جاد الله ببطانية فوق قميصه المهلهل وبنظونه المتآكل وذقنه الطويلة وشعر رأسه الذى طال حتى أصبح يغطى قفاه.. وبقي فى مكانه وكل عينيه مسطرتان على ميناء إيلات.. إن الحركة لا تهدأ حتى بالليل بل إن تحركات سيارات النقل تزداد.. نقل القوات ونقل الأسلحة والمتطلبات.. ويغلبه التعب ويحاول أن يوزع النوباتشية بين عينيه. عين تنام وعين صاحية.. ويقرر أن يستعين بالرئيس عويضة فى المراقبة ليغفو قليلا ويرتاح.. ولكن هذه ليست مهمة عويضة ولن يفهم ما يراه ما يفهمه هو.. وهو يستطيع أن يقاوم ويستطيع أن يتحمل.

وكان خلال كل ذلك يدير عينيه إلى ميناء العقبة.. لا شىء.. لا حركة إلا الحركة العادية لأى ميناء سياحى.. ليس فيه إلا رصيف واحد رئيسى فى حين أن إيلات تضم أكثر من ثلاثة

أرصفة.. كل ما فيها حركة تجارية محدودة، وحركة عدد من
مراكب الصيد.. ثم هناك فى الناحية الأخرى من الشاطئ
بعض الأفراد يلعبون لعبة الزحف فوق الماء ويعلقون أنفسهم
بلنش يجرحهم على الماء فوق زحافات.. هل هذا وقت اللعب..
ربما لهذا لا تفكر إسرائيل فى الاستيلاء على العقبة.. أو ربما
تعتمد الأردن أن تجعل من العقبة منطقة معزولة السلاح حتى
لا تستولى عليها إسرائيل.. إننا نلقى السلاح أمام العدو.

وفى صباح اليوم التالى سمح لاثنين فقط من رجاله
بالنزول إلى المدينة لشراء تموين المركب من الأرز والبطاطس
الذى يستكملون به مع السمك أكلة المدفونة.. ثم فوجئ عند
الظهر بضابط خفر السواحل يأتى ومعه حمل كبير من مختلف
الأطعمة وكمية كبيرة من السجائر.. سجائر ريم.. يا جماعة لا
تفضحونا أمام العدو.. إن ترحيبكم بنا قد يكشف عن حقيقة
مهمتنا.. قال هذا الكلام فى سره ولم يقله للضابط فهو لا يريد
أن يقول للضابط كل شىء.. والضابط مستمر فى ترحيبه.. إنه
أقل ما يجب نحو أول مركب مصرى يدخل العقبة منذ زمن
طويل لو كان مجرد مركب صيد.

وجاد الله يشكره بلهجة الصيادين التى كان يحاول أن
يضعها على لسانه كلما تكلم مع غريب.. ورجاله تكاد الفرحة
تقفز وتطير بهم.. هذا خير كثير.. نعمة.. وإبراهيم المرجوشى
يحاول أن يقدم نفسه للضابط متملقا.. والرئيس عويضة يتقبل
الهدية فى فرحة شامخة كأنه رئيس قبيلة تتقرب له القبائل
الأخرى بالهدايا.. ومد جاد الله يده إلى علبة سجائر.. إنه
يضعف دائما أمام السجائر وقد حمل معه تموينا من سجائر

كليوباترا يكاد ينتهى، لعل سجنائ ريم تعوضه عنها.. واستراح
وهو يدخن ريم وعيناها تطلان على ميناء إيلات.
وقبل الغروب جاء عونى الأيوبى إلى المركب وبصحبه
فتاة.

إنه تزوج من مصرية وهذه شقيقة زوجته.. وقدمها له..
زهرة.. وجاد الله يعود ويحدث نفسه.. إنهم سيفضحوننا..
يا جماعة نحن لا أكثر من مركب صيد.. أعملوا معروف..
وعونى يقول إن هذه زهرة لم تستطع أن تقاوم فرحتها عندما
سمعت أن قطعة من مصر قد وصلت إلى العقبة وأصرت على
أن تأتى لتلتقى بإخوتها المصريين.. وجاد الله مشدود إليها
بعينيه.. إنها حلوة.. ملفوفة.. شعرها الأسود موج هادىء فوق
كتفها.. وعيناها تنطقان بكل سداجة مصر وطيبة مصر وإغراء
مصر.. ووجد نفسه وهو بين عينيها يتذكر زيزى ويتذكر حقه
كبجار له فتاة فى كل ميناء.. إن زيزى ميناء الاسكندرية
وزهرة ميناء العقبة ومن حقه أن يرسو عليها.. وزهرة تقف
أمامه وتتطلع فيه هو وحده دون بقية من على المركب رغم أن
كلهم مصريون، كأنها تستطيع أن تراه من خلف ذقنه الطويل
وقميصه المهلهل وبنطلونه المتاكل وقدميه الحافيتين.. كأنها
ترى فيه الملازم عبدالحميد مهران لا الرئيس محمود جاد الله..
واقترب المرجوشى منها ولسانه يلحق شفثيه وبقية الرجال
اخذوا نظرة ثم انصرفوا عنها والرئيس عويضة تعلق شفثيه
ابتمامة حنونة هادئة كأنه يلتقى بابنته.. لم يحمل سطح هذه
المركب قدمى أنثى إلا قدمى ابنته عندما كانت أحيانا تحمل
إليه الطعام وهو يرسو فى ميناء السويس.. وزهرة تسأل

أسئلة لا تنتهى عن مصر والمرجوشى يسبق بالإجابة، وهى تستمع إليه وعيناها معلقتان بوجه جاد الله وهو يبتسم ابتسامته الباردة حيناً ويقول كلمة أو كلمتين ثم يعود ويدير كل وجهه إلى أرض العدو كأنه يهرب من زهرة ويهرب من إحساسه بأنه فى حاجة إلى امرأة ميناء.

ودعا المرشد عونى إلى العشاء فى بيته.. واعتذر جاد الله.. قال إنه مضطر أن يبقى مع عlish حتى ينتهى من إصلاح الماكينة.. وابتسم عونى ابتسامة خبيثة كأنه يفهم كل شىء وأخذ زهرة ونزل من المركب وهى تلتفت خلفها فى كل خطوة كأنها تحاول أن تشده وراءها، وتقف فوق الأرض وترفع رأسها إليه كأنها تقبله بابتسامة ثم تخفض رأسها فى خجل وتبتعد سريعا فى خطوات تتعثر فى خجلها.

والتف جاد الله بالبطانية وجلس على سطح المركب فى مواجهة إيلات يرقب التحركات فوقها وسؤال يتردد فى عقله.. ماذا تعرف السلطات الأردنية عن حقيقة مهمته.. وسواء كانت تعرف أو لا تعرف فهل بعد أن انضمت إلى القيادة المشتركة يصبح من واجبه أن يصارحها بهذه المهمة حتى تعاونه على أن يجمع مزيدا من المعلومات.. لا.. إن القيادة لم تبلغه شيئا.. وهو مرتبط بالاحتفاظ بسرية مهمته، ثم إنه لا يعرف مدى ارتباط الأردن بالقيادة، وكثيرا ما كانت تشكيلات الوحدة سواء كانت سياسية أو عسكرية مجرد مظاهر كاذبة.. ورغم ذلك فهو لا شك فى حاجة إلى الاتصال بأهل البلد حتى يستنزف منهم أسراراً لا يمكن أن يلتقطها بعينه المجردتين من فوق المركب.. لعل من المصلحة أن يتقرب أكثر من عونى

الأيوبي.. لا شك أنه يعرف الكثير.. وابتسم كأنه يسخر من نفسه.. هل يريد التقرب من عوني أم من زهرة.
وبقى طول الليل ملتقا بالبطانية وقد قسم نوبتشية النوم بين عينيهِ. عين تنام.. وعين لا تنام.. وأفكاره تختلط بأحلامه.. لا يدري هل يفكر أم هل يحلم.. ثم تقفز كل أعصابه، صاحية كلما لمح ضوءا جديدا ينطلق من فوق إيلات.
وفي الصباح حدثت مفاجأة.

صعد ضابط خفر السواحل إلى المركب وقال للرئيس جادالله ورجاله إنه جاء ليلغهم رسالة رسمية.. إن جلالة الملك قد أخذ علما بوصولهم وجلالته يرحب بمركب الصيد المصرى وبرجاله ويعتبرهم ضيوفا عليه فى العقبة.. وقال الضابط تأكيدا للترحيب.. كل البلد تحت أمركم.. اعتبروا أنفسكم مدعوين فى كل مكان من البلد.

وانطلقت الفرحة فوق كل الوجوه حتى كادوا يهللون هتافا بحياة الملك وجادالله يقف مبهورا.

والله عال.. لم يبق إلا أن يرسلوا موسيقى الجيش لتعزف لهم السلام الملكى الأردنى ويطالبونه بأن يعود إلى حالته العسكرية وقف تعظيم سلام.. يا جماعة لا تفضحونا.. اعملوا معروف.. إن إسرائيل ترانا كما نراها.. من يدري.. ربما كان الملك على علم بمهمة هذا المركب.. لا يمكن أن يرسل تحية رسمية لمركب صيد عادية.. بل من يدري.. ربما كانت إسرائيل تعلم أيضا وتراعى تخطيطا معيناً فلا تحاول أن تحتك به.
وسكت جاد الله.. إنه يحاول دائما أن يخفى شخصيته ولا يتصدر للمواقف وترك الرئيس عويضة يرد على الضابط..

ربنا يخلى لنا جلاله الملك.. والمرجوشى يتطوع بكلام كثير.. إلى أن غادر الضابط المركب بعد أن ترك وراءه حملا آخر من الهدايا.. أطعمة وشاي وبن وسكر وسجائر.. ومد جاد الله يده وسحب خرطوشة أخرى من سجائر ريم.

والرجال يريدون أن ينزلوا إلى المدينة.. ولم يمنعهم جاد الله.. يجب أن يريحهم ويرفه عنهم حتى يحتفظ بروحهم العالية.. ولكنه قسم الرجال الستة إلى ثلاث دوريات.. اثنين اثنين.. لا تخرج دورية إلا إذا عادت من سبقتها.. وعلى كل دورية ألا تغيب أكثر من ساعتين.. وآخر دورية تعود فى الساعة السادسة.. ممنوع السهر فى المدينة.. وممنوع الخمر.. وبقي هو فى المركب، عيانه مسلطان على إيلات.. يسجل ويرسل بالشفرة.. ويستقبل كل اثنين عائدتين من المدينة بسؤالهم عن كل شىء.. كل ما رآوه وكل ما سمعوه.. ودوافع قوية تلح عليه بأن يحاول هو نفسه أن يجمع المعلومات التى لا يراها بعينه.

وساعة العصر لمح زهرة تتمشى أمام المركب وفى خطواتها تردد كأنها لا تدري كيف تصل إليه.. ولوح لها بيده مع ابتسامة واسعة لم يتعودها وقفز إليها وأخذته وهى تتعثر فى فرحتها.. وقال وهو يحاول أن يرسم براءته بصوته :
- أخشى أن يكون زوج أختك قد أخذ على خاطره منى لأنى اعتذرت عن دعوته أمس.

وقالت زهرة فى حماس :

- إنه سيدعوك اليوم أيضا.. هل تقبل.

وقال جاد الله وهو يحتويها بعينه :

- يشرقنى.. وقد أوحشتنى مصر.. أحس كأنى سأتناول
العشاء فى مصر.

وجرت زهرة من أمامه كأنها على عجل لتعد له العشاء.

وجاء عونى الأيوبى مع الغروب وقال :

طمأنتنا زهرة إلى أنك ستقبل الدعوة هذه المرة.

وذهب معه إلى البيت بعد أن اتفق مع الرئيس عويضة على
أن يحل محله فى مراقبة التحركات فوق إيلات ويحفظها فى
ذاكرته إلى أن يعود.. لم يتفق مع المرجوشى.. إنه لا يثق فيه.
وقدمه عونى إلى زوجته المصرية.. وكل ما يقدمونه إليه
مصرى حتى الملوخية بالآرانب.. خيل إليه أنه يذوق الآرانب
لأول مرة من طول ما غابت عنه.. لقد كان يعيش فى دنيا ليس
فيها إلا سمك.. وزهرة تقوم على خدمته وهى تترنح فى حياء
كأنها فى انتظار أن يطلب يدها من زوج شقيقتها.. وبدأ يتحدث
مع عونى عن احتمالات الحرب وما يذاع عن مصر وعن
إسرائيل.. وعونى لا يعتقد أنه ستكون هناك حرب.. إنها مجرد
مظاهرات سياسية.. وكل هذه الحركة فى إيلات ليست أكثر من
المعتاد.. إنهم فى كل فترة يقومون بتحركات كأنها مناورات
تدريبية.. صحيح أنه لم تصل إلى إيلات بواخر أجنبية منذ
أسابيع.. وصلت مركب منذ أسبوع.. وإيلات لا تستقبل عادة
بواخر كثيرة.. إنها ميناء عسكري أكثر منها ميناء تجارياً..
وجاد الله يسأل.. مراكز السلطة فيها.. مراكز الثكنات.. القيادة
البحرية والقيادة البرية والقيادة الجوية.. والشوارع..
والكباريات والمقامى.. وعونى يجيبه فى هدوء دون أن يبدو
عليه الشك فى مهمته رغم أن كلها تساؤلات لا تدخل فى

اختصاصات ولا اهتمامات صياد.. مجرد صياد.. وقال جادالله
كأنه يحاول أن ينقى الشبهة عنه :

- إنها المرة الأولى التى أصل فيها إلى العقبة مع الرئيس
عويضة ولذلك أسألك عن إيلات من كثرة ما سمعت عنها.. ثم
لأنى رأيتها أكبر مما تصورت خصوصا بالنسبة للعقبة.
وقال عونى ضاحكا :

- إيلات ميناء عمل.. وهنا ميناء للنزهة والتزحلق على
الماء.. وغادر جادالله البيت وزهرة تنظر إليه بعينيه متساءلتين
كأنها تسأله متى ؟

وكان سعيدا بالمعلومات التى جمعها من عونى رغم أن
معظمها قد يكون مسجلا فى أرشيف المخابرات المصرية..
وهو سعيد لأنه وصل إلى هذه المعلومات بنفسه لا عن طريق
المخابرات.. وجلس على سطح المركب ملتقا بالبطانية يسجل
كل ما سمعه بعد أن راجع الرئيس عويضة فيما التقطه من
تحركات فوق إيلات.

كان الغد هو اليوم الرابع للمركب « علم الروم » فى ميناء
العقبة.. إنه اليوم الأخير.. وبعده يجب أن يبحر عائدا إلى
القاعدة.. وجادالله يراجع المعلومات التى جمعها ورغم كل ما
جمعه فهو مقتنع بأن لا يزال هناك معلومات ناقصة.
وفى الصباح جاءت زهرة تحمل صينية بقلادة، وقالت
ضاحكة لجاد الله :

- هذه ليست لك.. فقد أخذت نصيبك منها أمس.. إنها لبقاى
إخوتى.

وقال جادالله هامسا :

- هل أستطيع أن أراك اليوم ؟
وهزت رأسها فى حياء موافقة..
وعاد جاد الله يهمس :

- الساعة الثالثة.. عند نهاية الرصيف.
وتركت زهرة صينية البقلاوة بين أيدي إختوتها وجرت
فرحة.

ولاقاها فى الساعة الثالثة بعد الظهر.. والحركة راكدة على
الرصيف وبدأت تخف على أرصفة إيلات.. وصحبها إلى قارب
صغير يؤجر للسواحل وأخذ يجدف بها فى اتجاه الميناء
الأخر.. ميناء إيلات.. ولم يكن هذا ما يمكن أن يعتبر تسلا إلى
أرض الأعداء فالقوارب الصغيرة تروح وتجىء فى المياه التى
تجمع بين العقبة وإيلات.. وبدأ يحادثها كأنهما فى رحلة حب..
إنها تقيم مع شقيقتها منذ ثلاثة أشهر ولا تدرى متى تعود إلى
مصر.. وهى لا تريد أن تتم تعليمها إنها توقفت عند الشهادة
الابتدائية.. وقال مبتسما :

- إنى أومن بأن مستقبل أى بنت هو الزواج.. الزواج ولا
شئ آخر.

وقالت فى خفر :

- لن أتزوج إلا فى مصر.

وقال ضاحكا :

- على ألا يكون بحارا حتى لو كان من مصر.

وقالت فى جزع كأنه يطردها بعيدا عنه :

- لماذا.. ماذا ينقص البحار.

وقال وهو لا يزال يضحك :

- إن البحار بالنسبة لزوجته أشبه بالمخدر.. يخدرها بوجوده ثم يتركها مخدرة ويغيب عنها شهورا فى البحر ويترك فى كل ميناء فتاة مخدرة.

وقالت بشفتين غاضبتين :

- إن البحار قد يطوف بالموانى ولكن له دائما ميناء يعود إليه.. لا يطوف به ولكنه يعيش فيه.. أختى متزوجة من بحار.. إلا إذا كنت أنت من هذا النوع.

وقال فى رقة مفتعلة :

-أبدا.. ولكننى فقط أردت أن أعرف راىك فى زواج بحار.

قالت مبتسمة كأنها تخدعه من أن يكشف عن نفسه :

- مفروض إنك صياد.

وقال وهو يرمى ناظريه إلى الشاطئ.. إنه يقترب من

شاطئ إيلات :

- إنى أصطاد على الأرض.

وهو يقترب أكثر من أرض إيلات.. وكان القارب قد وصل إلى زاوية صخرية يختبئ فى ظلها وترك المجدافين وانتقل بجانبها وهو يقول :

- إنى أدعوك إلى شباكى.

ثم انحنى على شفيتها يقبلها ومن خلال القبلة يرفع عينيه إلى الشاطئ.. لا أحد.. الأرض البعيدة خالية.. وترك شفيتها وقال ضاحكا :

- قبلتك ذوبتنى.. انتظرينى هنا لا تحركى القارب.. وقام وقذف نفسه فجأة فى الماء وهو بقميصه المهلhel وبنطلونه المكrmش وقدميه الحافيتين وذقنه الطويل وشعر رأسه الذى

يغطي قفاه.

وقد سبق له أن تدرب فى فرقة الضفادع البشرية كبقية الغواصات.. وهو يغوص تحت الماء رغم أنه لا يحمل معدات الضفدع البشرى.. وهو يحاول أن يرى من بعيد تحصينات الميناء من تحت الماء.. إنه يرى مجموعة أسلاك ممتدة فى جوانب كثيرة من قاع الميناء.. وهو يعلم أن مثل هذه الأسلاك توضع متصلة بدائرة كهربائية تطلق إنذارا فى مركز القيادة إذا مسها أى جسم.. ورأى مجموعة من الألغام معلقة فى أماكن أخرى تحت الماء.. الألغام التى تنطلق فى موجات انفجارية تطيح بكل ما فوقها وما تحتها وما حولها ورأى.. ورأى.. إن قدرته على البقاء تحت الماء تصل إلى أربع دقائق.. كفى.. وطفأ فى هدوء فوق الماء إلى أن وصل إلى القارب وارتفع إليه وألقى بنفسه بين ساقى زهرة وهو يقول ضاحكا : - آسف.. إن كل صياد ينقلب فى فرحته إلى سمكة.. فرحتى بك :

وهى تنظر إليه فى دهشة لا تستطيع أن تعبر عنها ولو بكلمة.. إنه غريب.. لعله مجنون.. أو لعله خطير. وعادا إلى الشاطئ وافترقا على غير موعد كأنهما ارتبطا إلى حد لم يعودا فى حاجة إلى مواعيد لقاء.. واكتفى بأن قال : - غدا.

وقالت :

غدا.

ولم يكن لهما أبدا غد.

كانت التعليمات تفرض على الرئيس جاد الله ألا يبقى في ميناء العقبة أكثر من أربعة أيام يعود بعدها إلى مقر القيادة.. وقد كان يعتقد أنه يجب أن يبقى أكثر وإلى أن تنتهى هذه الحالة التي تهدد بالحرب، فالتحركات في إيلات لا تتوقف برياً وجوياً وبحرياً.. إنه لم يكن يعتقد أن تتسع لكل هذا النشاط والاستعداد العسكرى، وكان يجب أن يبقى كمركز استطلاع لمصر خصوصاً وإنه لم يجد في ميناء العقبة أى مركز استطلاع تابع للأردن.. إن العقبة مستسلمة استسلاماً كاملاً لإيلات حتى كمجرد مظهر عسكرى.. ورغم ذلك كان يجب أن يخضع للأوامر ويعود إلى مقر القيادة في السويس.

وقرر أن يتسلل خارجاً من الميناء دون أن يبلغ حرس الحدود الأردنى ولا صديقه المرشد عونى الأيوبى ولا حتى زهرة.. كان يخشى لو أبلغهم أن يبالغوا في مظاهر وداعه فيلفتوا نظر اليهود إليه فيتبعوه خارج الميناء وينفردوا به في البحر.. تسلل في آخر الليل قبل الفجر وهو يلقي آخر نظراته على الأضواء التي لا تهدأ حركتها فوق ميناء إيلات وعلى الأضواء المطفأة فوق ميناء العقبة.. وترك « الدومان » للرئيس عويضة معتمداً عليه اعتماداً كاملاً في تأمين قيادة المركب

كعادته، واستلقى فوق السطح وكل ما يملأ فكره وإحساسه
هى صورة زهرة.. فتاة الميناء.. إنها ليست مجرد فتاة ميناء..
لم يحملها إلى الميناء إلا زيارة أختها زوجة المرشد عونى..
إنها فتاة فى انتظار الزوج والبيت.. ورغم ذلك فقد كانت
الضحية الوحيدة فى كل العملية السرية التى قام بها.. لا ينكر
أنه غرر بها.. حرك فى خيالها صورة لمستقبلها معه.. ثم أنه
قبلها وهما فى القارب بجوار أرصفة إيلات قبلة طويلة..
لا يدرى كيف أحست بقبلته فهو شخصيا لم يحس بها.. كان
يقبلها كمجرد مظهر خادع يخدع به أى يهودى يمكن أن يراه
وهو يتسلل قريبا من الأرصفة.. كأنها رحلة غزل وليست
رحلة تجسس.. ولكنه لم يخدع اليهودى وحده خدع معه زهرة
فهى لم تكن تعرف أنها فى رحلة تجسس.. كانت تظن أنها فى
رحلة غزل.. لا يهم.. إن المرأة لها دائما دور رئيسى هام فى
كل الحروب حتى لو كان هذا الدور.. وكل تاريخ اليهود يعتمد
على نساء يعن أنفسهن لرجال الأعداء لإنقاذ شعبهن.. كل
امرأة تنام مع عدو تعتبر فى نظر التاريخ اليهودى قديسة
كدليلة التى استولت على شمشون.. وزهرة لم تعط نفسها
لعدو وإنما فقط أعطت قبلة لجندى من بلدها وإن لم تكن
تعرف أنه جندى ولا أنه فى مهمة عسكرية.. وغم ذلك فقد كان
يجب عليه على الأقل أن يودعها قبل أن يهجرها بكلمة حلوة..
بوعده.. ولكنه ودعها بكذبة عندما اتفق معها على لقاء الغد
وكان يعلم أن لا غد لهما.. الله يسامحه.

وكان قد أرسل إشارة إلى القيادة بتحركه خارج ميناء
العقبة.. وفى نفس اليوم والمركب السلحفاة تتحرك ببطء
وسط مياه خليج العقبة تلقى من القيادة إشارة بأن يتجه

مباشرة إلى ميناء الغردقة.. وكان المفروض أن يتجه إلى السويس.. لماذا الغردقة.. لا يهم.. تكفى فرحته بأن القيادة قد اتصلت به.. إنها لم تتصل به أبدا منذ بدأ إلا بكلمة « علم » أى إن رسالته وصلت.. وكانت هذه الكلمة تطمئنه إلى أن الشفرة لم تتغير كما حدث من قبل وتغيرت دون أن يبلغ بتغييرها. وأبلغ الرئيس عويضة بالتعليمات الجديدة.. وكان يصعد ويعلق نفسه بقدميه الحافيتين فوق السارى يستطلع ما حوله.. لا شىء.. الخليج كله هادىء هدوء غريباً.. لا مركب.. ولا طائرة.. ولا حتى قارب صيد.. ربما كانت الأزمة قد انتهت وعاد الهدوء.. ولكن هذا الهدوء يمكن أن يكون مريباً.. أكثر من هدوء.. عادى.. إنه لا يدري شيئاً.. والمركب ليس عليه جهاز راديو.. وهو يقضى وقته فى الاستطلاع حيناً، وفى استعادة المعلومات التى جمعها وتسجيلها فى أوراقه حيناً.. وأحياناً يصطاد السمك مع بقية الطاقم بخيوط اللنسا التى تصطاد سمكة بسمكة.. وأحياناً يجلس مع عويضة ليسمع منه حكايات الصيادين ويتعلم منه فن الصيد ولهجة الصير.. وأحياناً يجلس مع إبراهيم المرجوشى ويلعبه الكوتشينة كأنه يتقى شره.

ورحلت المركب « علم الروم » إلى الغردقة.

وصلت عند الظهر ٥ يونيو.

وفوجيء جاد الله بدرجة الاستعداد فى الغردقة قد ارتفعت إلى الدرجة القصوى وعلم فى كلمات عابرة مع من التقى بهم وهو فى طريقه إلى القيادة أنه حدث هجوم إسرائيلى عند فجر اليوم.. الحرب بدأت.. إنه لم يبلغ بأن الحرب بدأت رغم أنه كان لا يزال فى البحر.. لماذا لم يبلغوه.. ربما كان قد تعرض لشىء

لم يحسب حسابه.. وهو يحس هنا فى الغردقة كأنه لا شىء قد حدث.. تحركات كثيرة لا يفهمها.. واسترخاء فى مراكز أخرى حول أجهزة الراديو المركزة على محطة صوت العرب.. ربما كان صوت العرب هو الذى شغلهم عن أن يستقبله أحد وهو يدخل بالمركب إلى الميناء رغم أنه لم يكن يرقع علما ولا يمكن أن يكون حرس الحدود على علم بمهمته وبموعد وصوله.. دخل كأنه يدخل ميناء حرا وليس أمامه إلا مدفع صغير ومن ورائه عسكرى واحد.. وهو يتلفت حواليه فى حيرة إلى أن وصل إلى مكاتب القيادة.. إنهم هنا أكثر تعبيرا عن الحرب.. الجدية تفرض نفسها على الجميع والراديو فوق المكتب مسجلا على محطة صوت العرب أيضا.. واتخذ وقفة عسكرية فوق قدميه الحافيتين وقدم نفسه :

- الملازم عبدالحميد مهران.

ولم يكن مطلوبا منه شىء ساعتها.. عليه أن يبقى فى حالة الاستعداد القصوى إلى أن يدعى إلى القيادة.. ووجد نفسه يسرع عائدا إلى المركب وهو الآخر يبحث عن محطة صوت العرب.. إن الأخبار مفرحة.. فشل الهجوم الإسرائيلى.. الطائرات الإسرائيلية تتساقط كأوراق الخريف.. ومن حق رجاله الآن أن يرتاحوا على الأرض.. أن يوفر لهم أكلة دسمة وليلة ضاحكة ونومة هادئة.. ولكنه لا يجد من يلجأ إليه.. كل الغردقة تستمع إلى محطة صوت العرب.. وهو نفسه يريد أن يبدل هذا القميص المهلهل وهذا البنطلون المتآكل.. لقد أصبحا قطعاً من الخرق البالية القذرة.. ولكنه لن يجد فى الكانتين قميصا جديدا.. وليس معه ولا مليم حتى يشتري من أحد دكاكين الغردقة كان مفروضا ألا يحمل نقودا خلال تاديتة

مهمته.. والتقى صدفه بصديقه وزميله الملازم بحرى ياقوت العباسى.. إنه هو الآخر كان مكلفا بمهمة استطلاعية كمهمته.. ولكنه ساخط على كل شىء.. إنه اسكندراني يعبر عن سخطه ضاحكا.. وقاطعه عبدالحميد قائلا :

- هل معك نقود.

وأخرج ياقوت من جيبه ستة جنيهات وبضعة قروش وهو يقول ضاحكا :

- استولينا عليها أمس من العدو.

وقال عبدالحميد :

- أقرضنى فى عرضك.

واقترسم ياقوت المبلغ مع عبدالحميد.. أعطاه ثلاثة جنيهات جرى بها عبدالحميد إلى دكان اشترى منه قميصا وبنطلونا.. وأحس وهو يلبسهما كأنه يرقد على فراش من ريش النعام.. كأنه يجلس على كرسى هزاز.. ثم استعان بصديقه ياقوت وجمع أكياسا من الأرز والبطاطس وعاد بهما إلى المركب، وعاد الطاقم يصطاد السمك بأفتال اللفسا ويجتمعون حول أكلة المدفونة.

إننا فى حرب.

ولا يمكن أن ننتظر راحة ونحن فى حرب.

وهم ملتفون حول صوت العرب.. كلها أنباء النصر.. وكان عبدالحميد يمد يده أحيانا إلى الراديو ويحاول أن يبحث عن محطة أخرى ولكنه يعود سريعا إلى صوت العرب كأنها أوامر عسكرية أن يستمع إلى صوت العرب، إنها خيانة واتصال بالعدو لو استمعت إلى محطة أخرى.. كانت الروح العسكرية هى التى تلقى على عبدالحميد هذه الأوامر، وهو متمسك

بالروح العسكرية حتى يبدو مثلاً أمام رجاله.. ونام.
إنها ليلة بعد ليال كثيرة ينام فيها بهذا العمق وهذه الراحة..
ربما لأنه ينام فوق أرضه.

وانتفض واقفا على قدميه الحافيتين عند الفجر على أصوات
مفزعة.. إنها غارة.. غارة جوية إسرائيلية على الغردقة وطلب
من رجاله أن ينزلوا إلى الشاطئ.. إنهم هناك أكثر أماناً.. وهو
يبقى على المركب لعله يستطيع أن ينقذها لو أصيب.. ورفض
الرجال أن يتركوا المركب.. إنهم ليسوا عسكريين.. إنهم
صيادون.. رجال.. لم ينزل من المركب إلا إبراهيم
المرجوشي.. إنه يعرف أن هناك خندقاً على الشاطئ لحمايته.
واستمرت الغارة ساعتين.

ولم تصب المركب ولا أى مركب آخر بشيء كان الغارة
على الأرض وجدها.. ولم تسقط المدافع المضادة أى طائرة
إسرائيلية.. ولم ينطلق أى صاروخ.. ولم تظهر فى السماء أى
طائرة مصرية.. وراديو صوت العرب يذيع منذ صباح اليوم
التالى ٦ يونيو أخبار الطائرات الإسرائيلية التى تسقط.. إنه
لا يقصد الغارة فوق الغردقة.. الغردقة بعيدة وأخبارها
لا تصل إلى القاهرة ولا إلى صوت العرب.

وانطلقت الأسن على شاطئ الغردقة تعدد خسائر الغارة،
وقال ياقوت ساخراً :

- لم يبق شيء إلا مراكب الصيد.. تركوها للمسك.
وعبدالحميد مغتاط ناثر.. يحس بأن كل شيء من حوله
ناقص.. ضائع.. حائر.. ورغم ذلك فيجب ألا ينقل هذه الثورة
إلى رجاله.. إنهم صيادون ويجب أن يحتفظ للجيش أمامهم
بكل هيئته.. بدأ بأعمال لا تتوقف.. إصلاح المركب.. تنظيف

المركب.. ثم قرر أن يدهن المركب بلون آخر.. اللون الأزرق البحراوى.. إنه لون أكثر تأثيرا فى عمليات التضييل.. واللون الرمادى يثير الشبهات حتى لو كان على مركب صيد.. ولم يكن مفروضا أن تدهن المركب دهانا كاملا فيجب أن تبقى فى مظهر المركب القديم الفقير ، ولذلك قرر عبدالحميد ألا يستعمل الفرشاة فى الدهان بل كانت تدهن بقطع الخيش دهانا ليس متكاملا ولا نظيفا كأنها خرق كانت يوما ما ذات لون أزرق.

وكل هذا شغل الرجال طول اليوم وحتى الليل بعيدا عن المدينة وبعيدا عن الكلام وبعيدا عن الاستماع لصوت العرب.. حتى إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى فرض عليه عبدالحميد أن يشترك فى أعمال المركب حتى لا يقبل على الشط ويعود بكلام قد لا يريد عبدالحميد أن يسمعه أحد.. وكانت الساعة قبل منتصف الليل عندما استدعى عبدالحميد إلى شعبة العمليات.

ووجد هناك ياقوت العباسى وقد استدعى معه.

إنهما مكلفان بمهمة عاجلة.

هناك قوة عسكرية من ضابط وعشرين جنديا فى جزيرة صنافير ومطلوب نقلها بصفة سرية على مركب صيد.. ومركب « علم الروم التى يتولاها عبدالحميد لا تتسع لنقل القوة كلها لذلك تصاحبها المركب « مرجان » التى يتولاها ياقوت.. وعبدالحميد هو المسئول لأنه سبق أن ذهب وعاد من اتجاه جزيرة صنافير.

وأسرع عبدالحميد إلى المركب وهو يتعجب من هذا الأمر الذى صدر إليه.. لماذا يكلف بنقل قوة صنافير وهو على هذا البعد منها فى حين أن أى مركب من مراكب شرم الشيخ

تستطيع أن تنقلها، والمسافة بين شرم الشيخ وصنافير لا تتجاوز ميلا واحدا.. ربما كانت قوات شرم الشيخ قد تحركت.. ولكن حتى لو كانت قد تحركت فلماذا نسوا وراءهم قوات صنافير.. ثم كيف يتركون قوة في جزيرة صغيرة وليس معها ولا زورق واحد.
إنه لا يدرى شيئا.

لا أحد في الغردقة يدرى.

كل ما يدور هو ما تذيعه محطة صوت العرب.
وتحركت « علم الروم » عند الفجر وتحركت خلفها « مرجانة » والمفروض أنهما في طريقهما إلى رحلة صيد.. وعبد الحميد عاد كله إلى شخصية الرئيس جاد الله.. وتعتمد أن يلطخ قميصه الجديد باللون الأزرق الذي كان يدهن به المركب، ويهلل بنظونه، وقدماء الحافيتان تصعدان به فوق الساري.. والهواء يطير شعر ذقنه ورأسه الذي ازداد كثافة وطولا.

لا شيء في البحر حتى السمك يبدو أنه دخل المخابيء.
وبعد سبع ساعات وصلوا إلى الجزيرة الصغيرة صنافير.. إنهم لا يرون أحدا فوقها.. وطاقوا حولها لا أحد لعل أفراد القوة تركوا الجزيرة.. ولعلمهم أيضا مختبئون داخلها غير واثقين في مركب للصيد لا يرفع علما.. لم يكن في أحد المركبين مريا يمكن استعمالها في إطلاق إشارات ضوئية للجزيرة.. وليس في أحدهما سريتا أو صفارة مدخنة يمكن أن يطلقا بها إشارة صوتية تنبه من على الجزيرة إن كان عليها أحد.. وأمسك جاد الله بلوح صغير من الخشب واقترب به من مدخنة المركب وأخذ يحركه فوق فوهتها.. يرفعه ويخفضه..

وبدأت المدخنة تطلق صوتا أجش ولكنه يمكن أن يصل إلى
سمع من على الجزيرة ثم أن التلاعب بدخان المركب بلوح
الخشب يمكن أن يثير الانتباه.
وظهر أفراد أرض الجزيرة.
أخيرا.

وبدأوا يتصايحون متحدثين.. إلى أن اطمأن أفراد القوة إلى
أنه مركب صيد مصرى جاء لإنقاذهم.. واقترب المركبان من
الساحل وألقى كل منهما خطافه.. إن القوة التى كانت فوق
الجزيرة مكونة من ضابط وعشرين جنديا وزعموا بين
المركبين.. حمل جادالله معه سبعة من الجنود.. إن المركب علم
الروم لا تحمل أكثر من ذلك.. لا سلاح.. محرم على مركب
الصيد حمل السلاح، ولا شئ آخر من المعدات.. المركب
لا تحتل أى ثقل آخر.

وأرسلت إشارة إلى القيادة.. نجحت العملية.
وتلقى جادالله إشارة من القيادة.. اتجه رأسا إلى السويس.
لا بد أن الطريق آمن حتى السويس ما دامت القيادة قد
أمرت.. وجاد الله يتحدث مع جنود القوة .. كيف تركوكم
وحدكم فى الجزيرة.. لماذا لم تكونوا على اتصال بقيادة شرم
الشيخ.. وقال الجنود وهم أكثر حيرة من جادالله.. لقد كانوا
فى انتظار مركب التموين التى تصل من شرم الشيخ أول
أمس.. ولكنها لم تصل.. وحاولوا الاتصال أمس بالقيادة هناك
فلم يستطيعوا.. وتحركات إسرائيل فى المنطقة تحركات كثيفة
إنهم يرون من بعيد تحركات مراكب إسرائيل.. مراكب حربية..
ولكنهم لا يعلمون ماذا يجرى هناك.. والغارات الجوية متتالية
وقد طاروا فوق صنايفر عدة مرات ولكنهم لم يضربوا.. وكل

ما استطاعته قوة صنافير هو تحسين نفسها فى الخنادق وتحت الصخور.. ولم تصلهم أى إشارة من القيادة ردا على إشاراتهم المتتالية، وصوت العرب لا يذيع شيئا خاصا بهم. وجاد الله يسمع وتزداد حيرته.. ولكن لا شك أن القيادة قد حسبت حساب كل شىء ما دامت قد أمرته بأن يتوجه إلى السويس وهى تعلم أن طريق السويس هو الطريق المعرض لتركيز الهجوم الإسرائيلى.. القيادة مطمئنة وصوت العرب مطمئن أيضا.

والمركان البطيئان يزحفان فوق الماء بسرعة السلحفاة. وجاد الله معلق فوق السارى بأقدامه الحافية ومنظاره المعظم فوق عينيه.. وعند منطقة رأس محمد لمح فى الأفق ثلاث قطع بحرية صغيرة.. لنشات.. لابد أنها قطع من الأسطول المصرى.. لا يمكن أن يكون الأسطول الإسرائيلى قد وصل حتى رأس محمد.. لا يمكن.. والنشات تقترب وهو يستقبلها من خلف منظاره المعظم.

وفجأة صرخ.

إنها قطع إسرائيلية.

لم يعرفها بأعلامها ولكنه عرفها لأنه سبق أن رآها بذاتها عندما كان فى إيلات.. إن رادار اللنشات المصرية رادار ثابت لا يتحرك، ولكن الرادارات على اللنشات الإسرائيلية تتحرك وتدور حول نفسها.. إنه يعرف هذا.. وهذه لنشات إسرائيلية. وأرسل إشارة الخطر إلى ياقوت على المركب مرجان، ثم اتجه إلى جهاز اللاسلكى وتعاون هو وإبراهيم المرجوشى واثنان من الرجال فى رفعة من على أرض المركب والقائه فى البحر.. وجمع كل أوراق الشفرة وكل أوراقه الخاصة وأشعل

فيها النار وتخلص من آثارها.

كل هذا تم في دقائق.

وتم على المركب الآخر.

واتفاق سريع مع كل المجموعة.. إنهم صيادون استغاث بهم رجال القوة التي كانت مرابطة في صنافير لينقلوهم إلى السويس.. هذا هو كل ما يقال.

وأحاطت طلقات النار بالمركبين.. طلقات فوقهما وطلقات حولهما.. إنها طلقات مدافع عشرين مللى.. إنه يعرفها وأوقف جاد الله الموتور.. وفي دقائق كان فوق المركب ستة من الإسرائيليين.. اثنان منهم يحملان رشاشات «عوزى».. وكلهم يتكلمون العربية بلهجة مصرية.. وصرخ واحد منهم :
- إلى الورا أنت وهو.

وتلكا الرئيس عويضة فلكزه الجندي الإسرائيلي بحافة الرشاش صارخا :

- قلنا إلى الورا يا راجل يا عجوز يا وسخ.

وعاد يصرخ :

- ورا يا ابن الشرموطة أنت وهو.

وصرخ أحد رجال قوات صنافير :

- خليك في أدبكم.. يلعن اللي جابكم.. الشراميط في بلدكم.

وانقض الجنود الستة يضربون كل من تصل إليه أقدامهم وأكفهم ويطلقون طلقات في الهواء إرهابا.. وسقط المرجوشي على حافة المركب يبكي.. وجاد الله كان أول من استسلم لأوامر وخطى سريعا إلى مؤخرة المركب، وإذا بجندي إسرائيلي يرفع كفه وينهال بصفعة على وجهه وهو يقول كأنه يسخر منه :

- اثبت مكانك.

والصفعة ترن فوق وجه جادالله.. وعيناه تبرقان كأنه يشعل بهما النار فى خصمه أو كأنه يشعلها فى نفسه حتى يحرق أعصابه قبل أن يثور ويعرض نفسه لرصاص من رشاش عوزى.. ولم يتحرك.. ورنين الصفعة لا يهدأ فى أذنيه.. يحس كأن هذه الصفعة قد رسمت كل مستقبله.. كل خط حياته.. لن يستطيع أن يعيش إلا إذا أسكت رنين هذه الصفعة. وتجمعوا كلهم فى مؤخرة المركب، وقال الجندى الذى يحمل فى وجوههم الرشاش :

- انتم رجال عبدالناصر.. على جزمى انتم وعبدالناصر. وجادالله يضغط أكثر على أعصابه.. إن عبدالناصر هو العلم إنهم يمزقون علم مصر.. ولا يملك إلا أن يبقى ساكتا. وتولى أحد الإسرائيليين إدارة موتور المركب، وأمسك آخر « بالدومان » عجلة القيادة، ووقف الباكون فى الحراسة وأحدهم يغنى بالمصرى أغنية.. حلوة يا محلى نورها شمس الشموسة.. ثم انقلب يغنى.. بلادى.. بلادى لك حبى وفؤادى.. ثم نظر إلى جادالله وقال فى ضحكة ساخرة :

- خلاص.. بلادك حتبقى إسرائيل.

وبعد ساعة وصلوا شرم الشيخ.

لأول مرة يعرف جادالله ومن معه أن شرم الشيخ وقعت كلها تحت أقدام إسرائيل.. ربما لم يصل الخبر إلى محطة صوت العرب رغم أن الخبر يبدو أنه مر عليه أيام فالخليج الصغير « الجونة » مزدحم بزوارق إنزال الجنود والأرض مزدحمة بالدبابات وقوات المظلات كلها إسرائيلية.. وابتسم جادالله ساخرا من نفسه.. إنها المرة الثانية التى يقع فيها

أسيرا بشرم الشيخ.. المرة الأولى أسرته القوات المصرية
والآن تأسره القوات الإسرائيلية.

وساقوهم إلى الأرض.

وأجلسوهم على قرافيصهم فى انتظار وصول المركب
الثانى مرجان.. وعندما اجتمعوا كلهم صاح واحد من حملة
الرشاشات :

- كله يرفع إيديه لفوق.

ورفعوا أذرعهم إلى أعلى ومر بهم اثنان من الجنود ينزعان
الساعات من كل يد مربوطة فيها الساعة إنه نظام عسكرى
لسرقة ساعات الأسرى.. ثم أمروا بأن يخفضوا أذرعهم، وعاد
جندى يصيح باللهجة المصرية :

- اللى فى جيبه شىء يخرجـه.. كل واحد يفتش نفسه بدل
من أن نفتشه.

ولم يكن فى جيوب جادالله شىء سوى خمسة وسبعين
قرشا بقية الجنيهاات الثلاثة التى كان قد اقتترضها من ياقوت
وبقية علبة سجائر كليوباترا وولاعة رخيضة.. وأخرج ما فى
جيوبه ووضعها فى يديه المفتوحتين وهو جالس القرفصاء..
صامت.. ورنين الصفعة الإسرائيلية لا يزال يملأ أذنيه.. ومر
جنود إسرائيل يجمعون ما فى الأيدي الممتدة وتثور شكوكهم
حينما فيرفعون الأسير واقفا على قدميه ويفتشونه وقد
لا يخرجون منه إلا بمصحف قرآن صغير أو بصورة لابنه أو
زوجته ولا يتركون له شيئا.

واستراحوا من جلسة القرفصاء، ومال جادالله على ياقوت
وكان جالسا قريبا منه يريد أن يطمئن عليه بكلمة، وإذا بعضا
غليظة تنهال فوق كتفه والجندى الإسرائيلى يصرخ :

- ممنوع الكلام يا وسخ.. عبدالناصر مانعكم من الكلام طول عمره وهنا كمان ممنوع الكلام.. انتم تعودتم على الكرياج.. والكرياج وراكم.

ولم يتأثر جادالله بضربة العصي الغليظ كل ما حدث أن ارتفع رنين الصفعة فى اذنيه.. كان الصفعة تركته قابلا من زجاج يرن كلما مسه شىء.

والشتائم القذرة تنهال على كل الرجال وكأنهم قد اتفقوا جميعا بتبادل النظرات على ألا يردوا عليها.. كلهم صامت.

وبعد ساعات نقلوهم إلى «جونة» أخرى.. قطعة أرض فضاء أحاطوها بالأسلاك الشائكة.. ووجدوا فيها بعض جنود من قوات حرس السواحل المصرى.. وتساءل جادالله بينه وبين نفسه.. أين بقية القوات المصرية التى كانت فى شرم الشيخ.. هل أسرت ورحلت إلى مكان آخر.. أم انسحبت قبل أن يصل اليهود إليهم.. لا يدرى.. ولكنه تمنى لو أنهم أسروا.. لا لأنه حاقد يريد أن يعانى الجميع ما يعانىة ولكنه يحس أن الأسر لا يقلل من قيمة الشرف العسكرى.. لقد أسر فى عملية وهذا أشرف من أن يهرب أو ينسحب من عملية.

وبقوا ليلتين فى شرم الشيخ.. لا أحد يقدم لهم ماء ولا أكل.. وقد يمر بهم جندى إسرائيلى فيلقى إليهم ببسكوته أو قطعة من شيكولاتة أو سيجارة. يلقيها بينهم ويقف ليستمع نفسه بمشهد تراحمهم وتعاركهم حول لقمة العيش كأنهم نسانيس فى قفص حديقة الحيوان.. ولكنهم كانوا قد اتفقوا فى صمت على ألا يمدوا أيديهم إلى ما يلقى إليهم.. ولكنهم يريدون على الأقل ماء ليشربوا.. وصاحوا.. ماء.. وجاءوا إليهم بجردل ماء.. ونظر فيه جادالله.. إنه فعلا عطشان.. ولكن هذا

الماء له لون.. لونه أبيض كماء الصابون.. وأخذ ينظر إلى زملائه وهم يشربون.. لم يحدث لأحد منهم شيء.. ورغم ذلك لا يستطيع أن يقنع نفسه ليشرب.. مضى ثلاثة أيام وهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتكلم وكل ما يحس به هو رنين الصفعة على وجهه.

وفى اليوم الثالث جمعوهم فى قارب من قوارب إنزال الجنود مما يسمونه « بعبوعة » وكدسوهم الواحد فوق الآخر داخل حزام من الأسلاك الشائكة.. وأبحر بهم القارب.. والبرد قارس والبحر هائج.. وجنود صنافير وحرس السواحل يتدافعون من البرد أحدهم بالآخر ولم يتعودوا على البحر الهائج فيتقيأون فوق بعضهم البعض، ومدخل القارب تتسرب منه أمواج البحر فتغرقهم، وجاد الله واقف معصور بين أجساد الأسرى ويتحمل فوق رأسه القىء ويتلقى ماء البحر كأنه يغتسل بهما، وهو يرقب قيادة هذا الزورق. إن القائد جندى عادى.. شاويش ومعه أربعة يحملون المترليوزات.. وهم يطلقون أغانيهم ويستمعون إلى موسيقى الراديو.. ويشربون.. ويأكلون.

إنه يقارن بين ما يأكلونه ويشربونه وما يأكله ويشربه الجندى المصرى كأنه فى رحلة دراسية.. وهو صامت لا شيء يمكن أن يقرأ على وجهه، ولا حتى التعبير عن الإرهاق وعن الاستسلام ولا صوت ينطلق فى داخله إلا صوت الصفعة التى ترن على وجهه.

وبعد ثمانى عشرة ساعة وصلوا.

وصلوا ميناء إيلات.

إيلات التى غزاها وفتحها منذ سبعة أيام فقط.

ويرفع كفيه فوق عينيه.. إنه لا يريد أن يرى إيلات وهو أسير بعد أن رآها وهو غاز.

وأنزلهم من « البعبوعة » وصفوهم فى طابور وساروا بهم فى عرض استعراضى فى شوارع إيلات.. إنه رأى هذه الشوارع ورسمها من بعيد وعرف أسماءها من صديقه المرشد عونى الأيوبى.. وزحام الناس على الجانبين يتفرجون عليهم ويشتمون عبدالناصر ويشتمون العرب.. ويشتمون بكل اللغات وكل اللهجات.. بالعبرى والعربى والانجليزى والروسى.. ويسمع لهجة مصرية ولهجة لبنانية ولهجة عراقية.. ويهودى يصرخ ضاحكا فى وجهه :

- مش عايز حاجة من أمك.. أنا حافوت عليها الليلة.

وحول طابور الأسرى حرس كبير يحرسهم من اعتداءات المتفرجين.. ترى هل يمكن أن تكون زهرة بين المتفرجين.. من يدرى.. ربما كانت إسرائيل قد استولت على ميناء العقبة وضمتها إلى إيلات وأصبح من حق أهلها أن يقفوا فى زحام المتفرجين.. وحتى يهرب من كل ما يراه وهو يسير فى طابور الأسرى حافى القدمين والقذارة تغطيه من رأسه وتلف كل جسمه.

ووصلوا بهم إلى مستودع قديم ربما كان جراج سيارات أو مخزن بضائع وحشروهم كلهم فيه ملتصقين أحدهم بالآخر كأن كلا منهم يتنفس بأنفاس الآخر.. وجذبه الشاويش قبل أن يدخل ثم جذب معه واحدا من حرس الحدود وآخر من أفراد قوة صنافير.. كل منهم تميزه ملابسه.. وأخذ الثلاثة بعيدا عدة خطوات وتكلم باللغة العربية وبلهجة قدرها جاد الله على أنها

لهجة عراقية وقال فى صوت متعال مغرور وكلماته تنطلق من أنفه :

- الحرب انتهت.. كسيناها وهزمناكم فى ستة أيام..
وعبدالناصر استقال.. تخلصوا من أحلامكم وساعدونا على أن
نعاملكم معاملة حسنة حتى لا تضطرونا إلى الضرب.. وأنتم
الثلاثة مسئولون عن زملائكم وسنرحلكم غدا إلى بير سبع.
ولم يصدق جادالله.

ولم يصدق أن كل شىء انتهى.

لم يصدق أن عبدالناصر استقال.. لا يمكن أن تصل الهزيمة
إلى هذا الحد.

وأدخلوه إلى المستودع وحشروه بين بقية الأسرى.. وبعد
قليل دخل جنديان يحملان صفيحة كبيرة وقطعا من الخبز،
ووضعا ما يحملانه بينهم وخرجا بلا كلمة.... إنها أول وجبة
تقدم إليهم منذ أسروا.. ومضى عليهم ثلاثة أيام لا يأكلون..
وهجموا كلهم على العيش وعلى ما فى الصفيحة.. إن ما فيها
مربى سائلة.. كأنها كانت فعلا مربى حلوة ثم اذابوه فى قنطار
من الماء.. وصرخ ياقوت فى الجميع واتضم إليه النقيب ضابط
قوة صنافير ونظموهم وأعادوهم إلى الهدوء.. واحد واحد..
وكل واحد قطعة من الخبز مغموسة فى ماء المربى.. لم ينل
كل واحد أكثر من قطعة فى حجم أصبع اليد.
وناموا بعضهم فوق بعض وأنفاسهم والرائحة الكريهة التى
تنبعث منهم تخنقهم.

وألقوا إليهم فى الصباح بقطع من الجبن المتحجر وحمل
آخر من الخبز.. ثم قادوهم إلى مجموعة من سيارات نقل
البضائع المكشوفة، وفوق كابوت كل لورى اثنان من الجنود

يحمل كل منهم مترليوز.

وانطلقت بهم السيارات دون أن يعصبوا أعينهم كما هي العادة عند نقل الأسرى.. ربما كانت الحرب قد انتهت فعلا، أو ربما كانوا يعتبرونهم من التفاهة بحيث لا يستحقون عصب الأعين.

والطريق طويل.. وهو محشور بين الآخرين فوق اللورى يتلفت حواليه فى برود كأنه سائح يتفرج على ما يمر به كعادة أى سائح يقارن بين ما يراه وما فى بلده.. الشوارع.. البيوت.. الأشجار.. إلى أن وصلوا إلى بير سبع. معسكر استقبال الأسرى.

معسكر واسع يمتد كيلومترات فوق أرض فضاء ومقسم بالأسلاك الشائكة إلى مربعات.. ومئات من الأسرى. الأغلبية وجوه مصرية بينها وجوه فلسطينية وأردنية وسورية.

وفرقوا بين الأسرى المدنيين والأسرى العسكريين. الحمد لله.. إنهم يعتبرونه أسيرا مدنيا.. صيادا.. وقذفوا به بين الأسلاك الشائكة المخصصة للمدنيين.. أغلبهم مصريون.. عمال مناجم المنجنيز والفحم فى سيناء.. ومهندسون.. ومدرسون.. وأطباء من غزة والعريش.. وقضاة.. ومهربو الحشيش.. ووجد نفسه بين كل هؤلاء وقد قسموهم إلى مجموعات.. كل مجموعة داخل حزام الأسلاك الشائكة.. وينامون مسطحين على الأرض.. والحر فى النهار يذيبهم والبرد فى الليل يجمدهم وكل منهم يحتاج إلى الآخر ليتدفأ به.. وأى رأس ترفع من على الأرض يطلق عليها الرصاص. وكل يوم يلقون بينهم صندوقا من صناديق البيبسى كولا

مليئًا بالبصل والجزر والطماطم والجبن.. لا خبز.. ولا لحم.. هذا كل نصيبهم كل أربع وعشرين ساعة.. وحاول يا قوت أن ينظم توزيع التموين.. ولكن لم يكن الأمر سهلاً.. والأسرى يتضاربون حول نصيب كل منهم، والحرس من خلف الأسوار يضحكون.. ثم يلقون بقطعة من الخبز من فوق السور ليتزاحم حولها الأسرى ويضحكون أكثر.

والحراسة عنيفة.. إنها تعبر عن لذة القسوة والوحشية.. الرصاص يطلق فوق رؤوسهم بمناسبة وبغير مناسبة ويفجأون في الليل بطلقات الرصاص ثم يقومون في الصباح ليجدوا جثة أسير ملقاة فوق الأرض بين الأسوار وتبقى ملقاة أمام أعينهم أياما إلى أن يجندوا بعض الأسرى لحملها ودفنها في التراب.

وجاد الله يعيش في صمت دائم.. لقد اكتشف مخدرا عجيبا.. إنه يعرض رأسه للشمس إلى أن يصاب رغم تعوده على مقاومة ضربة الشمس، ويصاب بنوع من الإغماء يتركه كأنه نائم.. وفي الليل يعيش على صوت الشيخ عبدربه وهو يتلو القرآن.. إنه من عمال المناجم.. وهو يتلو وهو ممدد على ظهره ورأسه على الأرض كما تقضى التعليمات.. إن القرآن رحمة.. إنه كل ما يجده المسلم من رحمة بعد أن تضيع رحمة البشر.

إلى أن جاء دوره وأستدعوه إلى مكاتب المعسكر.. وسأله عن اسمه وبلده ومهنته وتاريخه وسجلوا كل ذلك بالحروف العبرية في ورقة ثقيلة علقوها في رقبته.. إنه يحس وهذا الخيط معلق في رقبته كأنه عبد مقيد من العبيد الذين يراهم في الأفلام التي تحكى حكايات العبيد.. يحس كأنه ثور معلق في ساقية إسرائيلية.. إنه يحس بهذا الخيط الرفيع كأنه يخنقه

ويحس بهذه الورقة الصغيرة المعلقة فوق صدره كأنها
صخرة تكتم أنفاسه وتعصر قلبه.

ومندوب الصليب الأحمر يمر مع الضابط الإسرائيلي
وينظر إليهم مبتسما كأنه يمر في رحلة سياحية ليشاهد الآثار
الإسرائيلية.

ومضى خمسة وعشرون يوما.

وحملوهم في اللواري مرة أخرى عبر طريق واسع عريض
أوتوستراد يمر بكل جمال فلسطين.. وكل خير فلسطين.. إلى
أن وصلوا إلى معسكر « تكريت » على الساحل قريبا من ميناء
حيفا.. إنه معسكر قديم.. كان معسكرا للانجليز وخصمه
اليهود منذ البداية كمعسكر للأسرى.. أسرى حرب ٤٨ وحرب
٥٦ والنوم يستقبل أسرى ٦٧.. ومد جاد الله بصره وهو يدخل
المعسكر.. آلاف.. آلاف من الأسرى.. إنه يلمح من بعيد كأن
الجيش المصري كله قد وقع أسيرا.. والأردنيون..
والسوريون.. وجاد الله يقاوم الانهيار.. لم ينته كل شيء.. لم
تقع مصر أسيرة.. لابد أن هناك شيئا قد بقى لمصر.

وجد نفسه لأول مرة داخل غرفة من القشلاق.. أخذوه
بعيدا عن العسكريين فهو لا يزال مدنيا.. صيادا.. ووجد نفسه
مع كل طاقم المركب في غرفة عادية.. واستراحت قدماه
الحافيتان لأول مرة لمجرد أنه وجد نفسه في الظل بين أربعة
جدران وليس فوق التراب.

وانتقل إلى نوع جديد من حياة الأسر.. ساقوهم كل أربعة
معا وأوقفوهم عرايا وقاموا بتعفير كل منهم بغبار الد. د. ت.
وبعدها بدأوا يمسون بكل واحد ثم يطبعون على جسمه
علامة باللون الأسود مكتوبا عليها كلمات بالعبرية.. يطبعونها

فوق صدره وفوق ظهره وفوق ركبته.. علامات تطبع بالزيت فلا يمكن إزالتها وكان كلا منهم أصبح ماركة مسجلة « أسر فى إسرائيل ».. وأعطوا لكل منهم حلة « أوفرول » يلبسها فوق لحمة، ثم عادوا بهم إلى العنبر داخل القشلاق..

وهو عنبر يضم أربعين فردا كلهم من الصيادين أهالى غزة وطاقم المركب علم الروم والمركب مرجانة.. وتقدم لهم وجبتان فى اليوم.. وجبة إفطار وجبة غداء ومن حق كل فرد أن يدبر من الوجبتين وجبة ثالثة للعشاء.. لم يكن يهتم جادالله ماذا يأكل.. إنه لا يعرف ما يأكل ولكنه يأكله..

ويقضى كل وقته مع زميله ياقوت ومع الرئيس عويضة وبقية أفراد الطاقم ويخرج معهم إلى فناء القشلاق فى الساعة المخصصة للفسحة.. وعم شتا صياد عجوز من غزة تعدى السبعين يصيح بين كل حين وآخر.. كلما ضاقت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج.. وعويضة يتحدث عن السمك وعن أولاده.. كل له وحشة فى إحساسه.. السمك والأولاد.. والحرس كله من اليهود العرب.. بل ربما قصدوا أن يكونوا من يهود نفس البلد الذى جاء منه الأسرى.. وفيهم حرس من يهود اسكندرية.. إنهم يتغنون بالاسكندرية وبأيامهم فيها، ويسخطون على حالهم فى إسرائيل.. إنهم هنا كأنهم الطبقة الحقيرة.. وحارس يهودى جاء فى نوبتشية صرخ بمجرد أن دخل.. عبدالله.. ثم انطلق إلى أحد الأسرى يحتضنه ويقبله فى وجهه.. سلامات يا عبدالله.. ازى أخوك حمدى.. والله زمان.. إنه يهودى من القاهرة هارب منذ خمس سنوات وكان صديقا لعبدالله الروح بالروح.

ولم يجر معهم تحقيق جدى.. جاءوا ونادوا على صيادى

العريش وبعد أسبوع نادوا على صيادى شرم الشيخ.. وقام جادالله ومعه طاقم المركب.. وسألوهم عن القوة التى كانوا ينقلونها من جزيرة صنافير.. وأجابوا نفس الجواب.. ثم لا شىء آخر.

وبدأ جادالله يتأقلم مع حياة الأسر.. والإجراءات تخف من حولهم وكلما خفت خيل إلى الأسرى أن الإفراج قريب.. وبعد شهرين بدأوا يوزعون عليهم سجائر.. إنها سجائر رخيصة أقرب إلى سجائر سمسون أرضى التى كان يعرفها فى مصر.. ولكنها سجائر.. منذ ثلاثة أشهر لم يلمس بشفتيه سيجارة.. ثم مدوا حنفيات الماء إلى داخل القشلاق.. ووزعوا عليهم قطعاً من الصابون الجاف كأن كل قطعة منه طوبة.. ولكنه صابون.. ورائحة الصابون - حتى هذا الصابون - كأنها عطر الورد.. وهو لا يزال ينام على بلاط العنبر.. قدماه حافيتان ورأسه مسنود إلى قطعة حجر يلفها بقميصه ويغطيها بشعر رأسه الذى يصل إلى قفاه وشعر ذقنه الذى طال أكثر.

كل ما كان يثير اهتمام جادالله هو زميله الرقيب إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى.. لقد انفصل عن بقية أفراد الطاقم ووضع نفسه فى عنبر آخر.. وقد حادثه جادالله أكثر من مرة وطلب منه أن يعود إلى عنبرهم بين زملائه.. ولكنه لا يعود.. ولا يختلط بهم فى فترات الفسحة.. لعله يعانى حالة نفسية نتيجة الأسر.. لعله يستريح فى العنبر الثانى أكثر أو لعله يلعب هناك القمار وهو مدمن قمار.

وكان قد مضى حوالى ثلاثة أشهر على الأسر.. ودخل إلى العنبر ساعة الغروب شاويش يعرفون أنه يتبع مكاتب قيادة المعسكر.. وصاح :

- محمود جادالله.

وقام جادالله وسحبه الشاويش معه إلى مكاتب القيادة..
ووجد نفسه يقف حافي القدمين أمام مكتب يجلس حوله ثلاثة،
اثنان منهم بالزى العسكرى والثالث مدنى.. واستقبله المدنى
قائلا باللغة العربية وبلهجة أقرب إلى اللهجة العراقية وبين
شفتيه ابتسامة كبيرة :

- أهلا حضرة الضابط.

واهتز جادالله وضغط على نفسه حتى لا يفضحه اهتزازه،
وعاد الرجل المدنى يقول ضاحكا :

- الملازم عبدالحميد مهران.. أهلا بك.

وعين عبدالحميد تتسعان كأنه يبحث لنفسه عن طريق
للهرب، إنه يعلم أن القانون الدولى يبيح إعدام ضابط الجيش
الذى يتخفى فى زى مدنى.
هل حكموا عليه بالإعدام ؟
ورنة الصفعة تملأ أذنيه.

كان الثلاثة الذين يتولون التحقيق مع الملازم
عبدالحميد مهران ينظرون إليه وبين شفتي كل
منهم ابتسامة ساخرة.. لم تتغير ابتسامة أحدهم
عن ابتسامة الآخر.. ويتوسطهم ضابط طويل
القامة ووجهه طويل طول فردة الحذاء، وكان الزى الذى
يرتديه واللهجة الانجليزية التى يتكلم بها تجعله يبدو فى
شخصية أمريكية.. لعله يهودى أمريكى جاء إلى إسرائيل مع
الحرب.. وعلى يساره كان يجلس ضابط قصير القامة منفوخ
الكرش متجهم الوجه رغم الابتسامة الساخرة التى تملو شفتيه
وكان يتكلم اللغة العبرية، ويتكلم كثيرا وتخرج كلماته سريعة
كمدفع مترلوز وفيها لهجة اللغة الروسية.. لعله يهودى
روسى جاء يحارب مع الأمريكى.. إن مصر لا تحارب إسرائيل
إنها تحارب العالم كله.. وكان يتولى توجيه الأسئلة الرجل
الثالث الجالس على اليمين.. إنه منفوخ أصلع يرتدى الملابس
المدنية.. بدلة كاملة وكرافت.. وكان أهداهم فى كلماته
وابتسامته الساخرة أرحم فى سخريتها من ابتسامة الاثنين
الآخرين.. وكان الثلاثة يتكلمون ثم يحدد اليهودى الأمريكى
السؤال ويتولى عضو اليمين توجيهه إلى عبدالحميد باللغة

العربية وبلهجة تؤكد أنه يهودى عراقى وقال اليهودى
العراقى :

- لماذا أخفيت عنا أنك ضابط فى الجيش ؟
وشد عبد الحميد قامته وهو واقف على قدميه الحافيتين
وركز على أعصابه فى شخصية المقاتل وقال وهو يتعمد لهجة
اللامبالاة حتى يثبت لمن أمامه أنه لا يخاف :
- حتى أحمى نفسى.. وقد عرفنا أنكم تقتلون صغار
الضباط الشبان.

وقال اليهودى العراقى فى لهجة هادئة :
- بالعكس.. إننا نعامل الضباط معاملة فى غاية الإنسانية..
إنهم على الأقل ينامون على سرائر وقد ضيعت على نفسك
هذه الفرصة فنمت على الأرض.

وقال عبد الحميد فى لهجة قوية :
- ليس مهما أن أنام على الأرض مادمت أحمى نفسى..
وأنى أعرف مقدما أنكم ستوجهون إلى أسئلة لا أريد الإجابة
عليها فتقتلوننى أو تعتدون على وأنا أعزل.

وترجم العراقى إجابته للأمريكى والروسى ثم قال :
- إننا لسنا فى حاجة إلى أن نسألك.. المهم.. ما هو
مركزك.. ضابط فى أى قوة ؟

وقال عبد الحميد بسرعة :

- أنا بحرى سواحل.

وقال اليهودى العراقى :

- وزميلك.

وقال عبد الحميد وقد ارتفعت جفونه فوق عينيه :

- زميلى من ؟

وقال اليهودى العراقى وقد اتسعت ابتسامته الساخرة :

- حضرة الضابط ياقوت العباسى.

وأجاب عبدالحميد بسرعة لا يبدو عليه أى تردد :

- بحرى سواحل أيضا.

وكان هذا هو ما اتفق عليه عبدالحميد وياقوت منذ الأيام الأولى فى الأسر.. أن يدعى إذا انكشف أمرهما بأنهما من ضباط السواحل حتى لا يقع تحت أسئلة خاصة بأسرار السلاح البحرى وحتى يكونا أقل أهمية عند العدو.

وقال اليهودى العراقى ضاحكا :

- ولماذا اخترتما حرس السواحل.

وقال عبدالحميد :

- لم نختر شيئا.. تخرجنا وكان ترتيبنا فى آخر الدفعة فوضعنا فى السواحل.

واستمر اليهودى العراقى يترجم الأسئلة التى يحددها اليهودى الأمريكى :

- بصفتك ضابط سواحل.. فلا بد أنك تعرف مراكز زوارق الطوربيد.

وقال عبدالحميد وهو يدعى البراءة وكأنه ساخط على حظه :

- أبدا.. إننا أشبه برجال البوليس المدنى.. كل مهمتنا هى مطاردة المهربين وكل ما نعرفه هى مراكز التهريب.

وقال اليهودى العراقى :

- ماذا كنت تفعل فى منطقة العقبة ؟

وقال عبدالحميد :

- إنها أنشط مناطق التهريب.. إن الحشيش يأتينا من

عندكم. وقد قامت الحرب ونحن فى طريق العودة وكلفنا بنقل القوة التى كانت فى صنافير.

وقال اليهودى العراقى :

- ماذا كانت أسلحة هذه القوة.

وقال عبدالحميد بسرعة :

- نحن لا نحمل أسلحة فى المركب ولم نصل إلى الأرض

لنعرف ماذا كان لديهم من أسلحة.. لابد أنكم عرفتم كل شىء.

وقال اليهودى العراقى :

- ربما ألقيتم أسلحة فى البحر.

وقال عبدالحميد :

- لا أدرى.

وتوالت الأسئلة وكان من بينها أسئلة عجيبة.. هل تعرف

فلانا وفلانا وفلانا.. وكل فلان هو شخصية مهمة فى السلاح

البحرى.. وعبدالحميد يرد.. لا أعرفه.. لا أعرفه.

وقال اليهودى العراقى :

- إنك تناور.. وأحب أن أقول لك إننا نعرف كل شىء.

وقال عبدالحميد فى استخفاف.

- إذن لم تسألنى مادمتم تعرفون كل شىء ؟

وابتسم اليهودى العراقى ابتسامته الساخرة وقال :

- قل لى يا حضرة الضابط.. لو أردت أن تحج إلى مكة..

لا شك إنك مسلم وتحب أن تزور مكة.. فى أى طريق تختار

للحج.. الطائرة أم المركب ؟

واحتار عبدالحميد فيما يقصده المحقق بهذا السؤال ثم

أجاب فوراً :

- أختار الطائرة.

قالها فقط ليهرب من سؤال خاص بالبحرية.

وقال اليهودى العراقى وهو يضحك :

- لماذا لا تأخذ مركبك وتذهب إلى ميناء الحمضية
السعودى ومن هناك تذهب إلى مكة.

وارتعشت رموش عبدالحميد فوق عينيه... إنهم يعرفون كل
شئ فعلا.. إنه يقصد الميناء التى رسا عند حدودها وهو فى
طريقه إلى العقبة ليتجسس على إيلات.. ولكن كيف عرفوا..
من أبلغهم.

وقال عبدالحميد وهو يدعى البراءة :

- لا.. هذا طريق بعيد.

وابتسم اليهودى العراقى ثم مال على اليهودى الأمريكى
والروسى وأخذوا يتكلمون باللغة العبرية فترة، ثم التفت إلى
عبدالحميد وقال وهو يبتسم له ابتسامة هادئة :

- كم عمرك يا ابنى.

وقال عبدالحميد :

- اثنان وعشرون عاما.

وقال اليهودى العراقى فى صوت هادئ :

- إنك فى عمر ابنى.. وإنى أتمنى لك ما أتمناه لابنى.. أن
تعيش وتعمل فى سلام.. لا تصدقوا ما يقال لكم.. أنتم ضحايا
عبدالناصر فلا تصدقوه.. وانتهوا منه قبل أن ينتهى منك.

وشد عبدالحميد قامته وقال فورا كأنه لم يعد يستطيع أن
يحكم عقله :

- الذى يحارب لا يكون ضحية ولكنه شهيد.. وعبدالناصر
يسير بنا حيث نريد أن نسير.. ونهايته هى نهايتنا كلها.

ونظر إليه اليهودى العراقى فى تعجب ثم هز رأسه فى

يأس وقال :

— غدا قد تفهم.. أنتم مساكين غلبة. وأشار إلى الحرس وسحبوه عائدين به إلى ثكنة الأسرى المدنيين.
ودخل الثكنة وهو يبحث بعينه على زميله ياقوت، واختلى به بعد أن تركه الحرس وروى له كل شيء.. ولكن ياقوت لم يستدع للتحقيق بعده مباشرة.. مضت ثلاثة أيام قبل أن يدعوه.

وغاب ياقوت أكثر مما غاب عبدالحميد.. غاب عشر ساعات.. فهو لم يستطع أن يتمسك بهدوء عبدالحميد وانطلق لسانه الطويل يتكلم ويشتم ويسخر.. وأشاروا إلى الجندي الإسرائيلي المتخصص فجاء وانهار عليه بالصفعات بينما جنديان آخران يمسانه من ذراعيه.. ولكنهم أخيراً أعادوه إلى الثكنة وأخذ يروى لعبدالحميد ما حدث له وهو يضحك ساخراً.
وعاش الاثنان في انتظار الإعدام الذي تحكم به اتفاقية الأسرى على كل ضابط يتخفى في شخصية مدني.. وعبدالحميد لا يكف عن البحث في فكره عن الذي أبلغ عنه السلطات الإسرائيلية.. لابد أنه إبراهيم المرجوشي.. إن ابتعاده عنهم وإصراره على الإقامة في ثكنة أخرى يؤكد اتهامه.. وهو يشك فيه ولا يثق في تصرفاته.. ولكنه حرص على ألا يثير هذا الموضوع حتى مع زميله ياقوت.. ليس هذا وقته.. أي إشارة إلى أن بينهم خائناً ستثير ضجة في المعسكر كله لن تكون في صالحه.. ثم من يدري.. لعله أخطأ.. ولعل لليهود وسائل أخرى للوصول إلى ما يريدون معرفته.. وهو يقضي الوقت مع الرئيس عويضة يوصيه على طاقم المركب بعد أن يرحل عنهم.. ويحدثه عن عائلته حتى إذا عاد عويضة إلى مصر يروى لهم

كل شيء.. وكان قد سمح للأسرى قبلها بكتابة الخطابات وإرسالها عن طريق الصليب الأحمر.. ولكنه لم يكتب لأهله.. كان يستطيع أن يكتب باسم الرئيس محمود جادالله.. لا أحد من عائلته يعرف هذا الاسم.

وبعد أسبوع جاءوا وأخذوا عبدالحميد وياقوت.. لم يأخذوهما إلى الإعدام، ولكن أخذوهما إلى معسكر الأسرى العسكريين.. آلاف.. آلاف من العسكريين مصريون وأردنيون وسوريون.. إن بين الأسرى خمسة لواءات من الجيش المصري.. ووجد عبدالحميد نفسه في كتلة بين عدد من زملائه الضباط.. وله سرير.. وفوق السرير مرتبة وبطانية ومخدة.. وأعطوه «أوفرول» جديدا ليرتديه.. وحذاء.. يخلل إليه أنه لأول مرة يضع قدميه في حذاء.. ووجد أنه لم يعد في حاجة إلى ذقنه الطويل فحلقه وحلق شعر رأسه الذي كان يتركه يتدلى فوق قفاه.. إنه الآن ضابط وليس المعلم محمود جادالله.. وكلهم يعرفونه على أنه ضابط بحرس سواحل.. لا أحد يعرف أنه ضابط مجموعة القنصات في سلاح الغواصات.. حتى الإسرائيليون.. لعل إبراهيم المرجوشي احتفظ بهذا السر ورغم كل ما افشى به من أسرار فقد كان يعرف أنهم اتفقوا على أن يقدموا أنفسهم على أنهم حرس السواحل.. ولكن أين إبراهيم المرجوشي.. لماذا لم يحول إلى معسكر الأسرى العسكريين رغم أنهم لا شك عرفوا أنه رقيب في الجيش.. ربما فقد احترامهم له إلى حد أنهم ضنوا عليه بأن يرفعوه إلى مرتبة العسكريين.. إن معاملة الأسرى تختلف باختلاف الموقف الذي أسر فيه كل أسير.. من يؤسر وهو يقاتل يحترم أكثر ممن يؤسر وهو هارب أو وهو مستسلم.. إن

هذا يبدو في معاملة اليهود للعسكريين وبينهم اللواء صالح البرديسى.. لقد أسر وقت معركة عنيفة كان فيها بطلا، ورغم عدد الإسرائيليين الذين سقطوا أمامه فقد أسروه وهم يحترمونه.. يحترمون البطولة العسكرية.. وهو يقف في المعسكر بزيه العسكرى ويحتفظ بعلامات رتبة فوق كتفه الأيسر بينما نزع من فوق كتفه الأيمن كما تقضى تقاليد الأسر، ويمر به ضباط وجنود إسرائيل فيحيونه التحية العسكرية.. إنه القائد الفعلى للمعسكر وقد استطاع بشخصيته أن يكتسب ثقة الأسرى بمن فيهم الأردنيون والسوريون.. وكان يحدث الكثير داخل المعسكر بما يتطلب تدخل اللواء صالح البرديسى.. اعتدى مرة جندى من الحرس الإسرائيلى على أسير برتبة مقدم فقامت مظاهرة بين الأسرى وبدأوا يتبادلون القذف بالحجارة مع جنود الحرس، ودخلت فرق من الحرس بالهراوات وتطلق الرصاص فى الهواء إلى أن قرر اللواء صالح أن تتوقف الثورة بعد أن توصل إلى إبعاد الجندى الذى تسبب فيها.. وكانت العقوبات تفرض أحيانا بمنع توزيع السجائر أو بالحرمان من وجبة من وجبات الطعام إلى أن يتدخل اللواء صالح.. بل إنه قامت حوادث كثيرة نتيجة تردد المجندات الإسرائيليات على المعسكر.. إنهن يثرن الأسرى.. إنهن يذكرن الأسرى بالحرمان الطويل.

واستطاع اللواء صالح أن يقنع السلطة بأن تمنع دخول المجندات الإسرائيليات فقط لأنهن جميلات. واستراح الأسرى وإن كانوا بقوا ينتظرون كل ليلة أحد أى مساء السبت ليلمحو من بعيد الحفلات الراقصة التى يقيمها رجال قوات الحرس مع بنات إسرائيل.. كان نفوذ اللواء صالح الذى يفرضه باحترامه

لنفسه نفوذاً قوياً إلى حد انتشرت إشاعة بأنه كان زميلاً لموشى ديان فى كلية هيرست بانجلترا وأنه يجامله كصديق.. والهدايا تصل إلى عبدالحميد عن طريق الصليب الأحمر.. هدايا كثيرة بما فيها شبشب زنوبة ومع تحيات وزير الشؤون الاجتماعية.. لا أحد منهم يتقبل تحية أحد.. لا يريدون التحية.. يريدون الحرية.. وهو بين الحين والآخر ترن فى أذنيه رنات الصفعة التى تلقاها على وجهه من البحار الإسرائيلية الذى قبض عليه.. أصبحت هذه الرنات كنوبات الصداق تنتابه بين الحين والحين.. ويمتلئ صدره بالنار.. نار الغيظ.. يجب أن يرد هذه الصفعة.. ولكن كيف.. كيف.. وقد بدأ يفكر فى الهرب هو وزميله ياقوت والرائد شاهين مرسى الذى كان قائداً لقوة جزيرة صنافير.. هل يهربون من البحر أم يجتازون المزارع إلى أن يصلوا إلى الأردن.. ويتدارسون ويرسمون ثم لا شىء.. ولكنه يتمنى أن يهرب إلى الأردن ومن هناك يصل إلى العقبة.. إنه هناك يستطيع أن يصل كشاب مدنى من عائلة صديقه المرشد عونى الأيوبى، ويستطيع هناك أن يتزوج زهرة ليقيم كائى عائلة عادية، ومن هناك يستطيع أن يتسلل إلى داخل ميناء إيلات ويقوم بعملية الانتقام من الصفعة التى لا تزال ترن فى أذنيه.. ثم يهرب من خياله ويجلس ليكتب خطاباً إلى والده.. إنه لا يستطيع أن يكتب كل شىء فالخطابات تمر صراحة إلى الرقيب.. المسموح به هو فقط السؤال عن الصحة والعافية.. هل سيكتب لزيى فتاة الميناء.. فتاة الاسكندرية التى عاش معها أكثر من عام.. لا.. إنه لا يريد أن يكتب إلا لزهرة.. هى التى أعطته.. أعطته إحساسه وزهوه بعمله العسكرى.

إلى أن بدأ الإفراج..
تم أولا ترحيل الأسرى الأردنيين.
وبعدها بشهر ترحيل الأسرى السوريين.
وبعد ثلاثة أشهر عن عبدالحميد مع باقى أسرى القوات
المصرية.. أفرج عنه بعد تسعة أشهر وهو أسير.. واستقبلوا
على أرض مصر بالموسيقى تعزف لهم.
ووقف عبدالحميد أمام الفرقة الموسيقية التى تعزف وقد
لوى شفتيه فى قرف.. إن رنة الصفعة فى أذنيه تعلو على كل
هذا الصراخ الموسيقى.. لماذا الموسيقى.. لماذا الفرقة.. إنهم
لم ينتصروا.. إنهم عادوا مهزومين كجرى الحرب إن جرح
الأسر لا يشفى أبدا إلا إذا ضمه بأسير إسرائيلى.
وبدا يسأل منذ اللحظة الأولى عن طاقم سفينته « علم
الروم ». واهتدى إلى ضابط المخابرات المختص. لقد أفرج عن
الأسرى المدنيين قبل شهر من الإفراج عن الأسرى
العسكريين.. وقال ضابط المخابرات كأنه يحاول أن يفرحه
ويخفف عنه :

— لقد عرفنا قصتك وأنت أسير.. واكتشفنا المسئول عن
هذه القصة.

من ؟

إنه إبراهيم المرجوشى.

لقد عاد المرجوشى من الأسر منذ شهرين ، وبمجرد
وصوله بدأ يتحرك تحركات غريبة ويقول كلاما غريبا ويسأل
أسئلة غريبة فأخذه وفتشوه ووجدوا فى جيوبه مائتى جنيه
عملة مصرية وطربة حشيش. وبقوا معه حتى اعترف.. هو
الذى أبلغ عنه وعن زميله ياقوت.. وهو مقدم للمحاكمة.

وقال عبدالحميد كلمة واحدة كأنه يخفف التهمة عن
المرجوشى:

- إنه لم يقل لهم إنى ضابط غواصات.

ولا يدرى ما حدث للمرجوشى بعد ذلك.

وقد أخذوه إلى الكلية الحربية وأبقوه هناك أياما يلقون عليه
فى كل يوم محاضرة.. إنهم يضعونه تحت عملية غسل مخ..
لن يغسل مخى إلا الانتقام من الصفعة التى لا تزال ترن فى
أذنى.. إن الإنسان قد يقتل وتموت فيه روحه وأنا قتلت وإن لم
تمت فى إلا كرامتى ولن أعود إلى الحياة إلا بعد أن استردها..
وهم يحدثونه عن جمال عبدالناصر.. ويبررون له كل
تصرفاته.. وهو يصرخ بينه وبين نفسه.. اسمعوا.. إنى لم أكن
أتحمل كلمة واحدة ينطقها إسرائيلى ضد ناصر.. كنت أعتبره
العلم الذى نرفعه فى الحرب والذى يمثل كل قيمتنا وكل
كرامتنا، ولكننا هنا بعيدا عن الأعداء وبيننا وأنفسنا لا
أحس بعبدالناصر إلا كحاكم أخذنا إلى ما نحن فيه.. إنه
المسئول.. إنه المسئول.. ولن يعفيه من مسئوليته إلا أن
يسترد لنا كرامتنا ويرتفع بنا فوق هزيمتنا.. دعونى أحارب..
لا تسمعونى هذا الكلام حتى لا أفقد إيمانى بأنى أستطيع أن
أحارب.

وأفرج عنه من معسكر الكلية الحربية، كما سبق أن أفرج
عنه من معسكر الأسرى.

وعبدالحميد فى ذهول.. لا يمكن أن تكون هذه هى القاهرة،
وهذه هى الاسكندرية، وهذه هى مصر كلها.. هذا الهدوء
واللامبالاة كأن شيئا لم يحدث.. كأننا لم نهزم فى حرب وكان
إسرائيل لم تحتل سيناء وكان ثلاثا من أكبر مدن مصر ليست

تحت رحمة نيران العدو.. وكأن مليوناً من أهل القناة لم ينزعوا من بيوتهم ومن شوارعهم.. أين هم أهل القناة.. إنه لم يرههم في بيوتهم ولا يراهم هنا.. لعلهم ذابوا.

وقضى عبدالحميد يوماً واحداً مع أبيه وأمه ثم جرى إلى قيادته في السلاح البحري.. إنه يريد أن يعمل.. يريد أن يتحرك.. لم يعد يحتل الراحة والاسترخاء حتى لإشباع شوق أبيه وأمه إليه.. والمفروض أن الجندي الذي يقع في الأسر يعمل بمقاييس خاصة بعد عودته.. إنه غالباً يحال إلى أعمال مكتبية، فقد يكون الأسر قد أضعف فيه روح القتال، ثم إنه لو قاتل وأسر مرة أخرى فإنه يعدم فوراً، ويعامله العدو بلا رحمة كأنه مجرم عائد. ولكن القادة يعرفون عبدالحميد.. يعرفون ما يخفيه من إصرار على المغامرة.. يعرفون إنه شخصية أقوى من الأسر.. فتركوه يعود إلى كل حياته العسكرية.

المهم أن يشترك في عملية.
يريد أن يشترك في عملية يرد بها على هذه الصفة التي يملأ رنينها أذنيه.

والأيام تمر بلا عمليات.

وهو يفكر في أن يقوم بعملية لحسابه الخاص.. نفس العملية التي خطرت له أيام الأسر.. أن يذهب إلى العقبة ويتزوج زهرة ويقيم هناك إلى أن يتمكن من القيام بعملية.. عملية تدمير.. ولكنه لا يستطيع أن يقنع نفسه.. إنه عسكري وروحه العسكرية تفرض عليه أن يتحرك كعسكري.. يتحرك مع الجيش ومع القيادة لا في عملية فردية.

وفجأة طلب نقله من مجموعة القناصات إلى فرقة الضفادع

البشرية، ربما لأنه قدر أن مجال العمليات فيها أوسع.. وأجيب إلى طلبه.. وعاش أيامه كلها يستعيد التدريب ويعرض نفسه لأقصى المغامرات.. لا شيء آخر يملأ كل دقائق عمره.. إنه يعيش حالة الحرب كاملة كأنه فى داخل ميدان القتال.. حتى زيزى.. فتاة الميناء.. إنها تجرى وراءه.. تحاول أن تستعيده.. لا.. لا وقت لزيزى.. إننا فى حرب.

وكان قد مضى أكثر من عام.

أوائل عام ١٩٦٩.

وتقررت عملية تقوم بها الضفادع البشرية.. عملية ميناء إيلات.

الميناء التى دخلها كغاز.. وعاد إليها كأسير.. إنه يعرف حتى أسماء حواريتها.

وطار عبدالحميد وخمسة من زملائه إلى المملكة العربية السعودية.. وكلهم فى براءة الملائكة.. إنهم فى طريقهم لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول.. واستقبلوا هناك فى صمت وتحركت بهم سيارة كبيرة فى طريق طويل لا يمر بمكة ولا بالمدينة.. طريق انتهى بهم إلى ميناء الحمضية فى أعلى شمال خليج العقبة.. واستقبلوا هناك فى صمت.. ثم عادت السيارة الكبيرة تتحرك بهم عبر الصحراء التى لا نهاية لها.. وهم كلهم مختبئون تحت سقف السيارة والسيارة نفسها سيارة مدنية.. لا شيء يثير الشبهات.. إلى أن وصلوا إلى نقطة حرس الحدود.. إنه نفس المركز الذى لجأ إليه عبدالحميد فى العملية الأولى.. وهو نفس الضابط السعودى ولكنه لم يتعرف على عبدالحميد.. لقد استقبله فى المرة الأولى كصياد حافى القدمين وشعر رأسه وذقنه يغطى وجهه، وقميصه مهلهل

وينطلونه متآكل.. ولم يحاول عبدالحميد أن يذكره أو يعرفه بنفسه.. والضابط السعودي يستقبلهم بفرحة وعيناه تنطقان بالإعزاز والفخر.. إنه لا يشتم جمال عبدالناصر.. السياسة تغيرت.. والسياسة هي التي تحكم مشاعر الناس.. وقد كان عبدالناصر مهزوما سياسيا فى السعودية.. وقد صفيت آثار الهزيمة.. وعبدالحميد يسأئل نفسه.. هلئ تصالحوا مع عبدالناصر اقتناعا به أم شفقة عليه بعد هزيمته العسكرية.

وقضوا يومين تحت سقف بيت صغير فى مركز الحدود وهم يستعيدون كل تفاصيل ميناء إيلات، ويحفظون المسالك بين الأسلاك الكهربائية التى سبق أن أكتشفها عبدالحميد فى القاع، ويستعيدون الخطة كاملة.

وفى الليل.. تحرك زورق مطاط بين شعب المرجان التى سبق أن تراقص بينها الرئيس عويضة بمركبه « علم الروم ».. إلى أن وصلوا إلى بعد خمسة كيلومترات أمام ميناء العقبة.. وغاص خمسة منهم فى الماء وفوق ظهر كل منهم عبوة أكسجين تكفيه ثمانى ساعات، وحول معصمه خيوط متصلة بقطع من الألغام والعبوات الناسفة يشدها من أعلى أكياس صغيرة من الهواء تطفو فوق سطح الماء حتى تخفف الثقل عن ذراع الضفدع الذى يسعى تحت الماء.

وهم يعرفون القطع البحرية وأماكنها من الميناء.. وكل منهم يعلق فى رسغه ساعة بوصلة تدله على الطريق إلى كل قطعة.. ويقتربون من قاع القطع البحرية ويحشون أو يرفعون ما علق به من حشائش بحرية فى مساحة صغيرة ثم يلصقون بقاع المركب اللغم المغناطيسى الذى ينفجر بالتوقيت.. مدمرة.. طراد.. غواصة.. ولكن عبدالحميد يريد أيضا قطعة

أخرى.. يريد الزورق الذى سبق أن أسر المركب « علم الروم »
وخرج.. منه الجندى الإسرائيلى الذى صفعه ولا تزال صفعته
ترن فى أذنيه إنه يعرف بهذا الزورق.. إنه زورق إيطالى من
نوع « باجالتو » وقد درس هذا النوع حتى القاع.. إنه يستطيع
أن يميزه من القاع.. ويزحف الضفدع.. بين المراكب حتى
يجده.. يجد الزورق الذى يبحث عنه.. ولصق به اللغم..
واستراح.

قضوا فى قاع إيلات ثلاث ساعات ثم عادوا كلهم سالمين
إلى زورق المطاط الذى كان فى انتظارهم.. ثم وصلوا إلى
المركز السعودى.. وهناك.. من بعيد.. سمعوا صوت
الانفجارات.. ولمعت فى السماء أنوار الحريق.
إيلات تحترق.

إسرائيل تحترق.

وسكت الرنين عن أذنى عبد الحميد.

لقد سمع رد الصفعة.

ولكنه يسمع الرنين يملاً صدر مصر كلها.. هناك صفعة
أكبر تلقته مصر ولم تردها.

وكل شىء يتغير

وكل شىء يتحرك وهو يتحرك معه.

وقبل اكتوبر ٧٣ بشهور كان يقوم بنفس المهمة التى كان
يقوم بها منذ تخرجه.. الاستطلاع.. على مركب صيد أيضاً..
واختار معه أيضاً الرئيس عويضة.. وأطلق على المركب نفس
الاسم « علم الروم » وإن لم يكتبه على حافتها حرصاً على أن
لا تذكره إسرائيل.. أن « علم الروم » الأولى لا تزال فى
الأسر.. ولن تؤسر علم الروم الثانية.

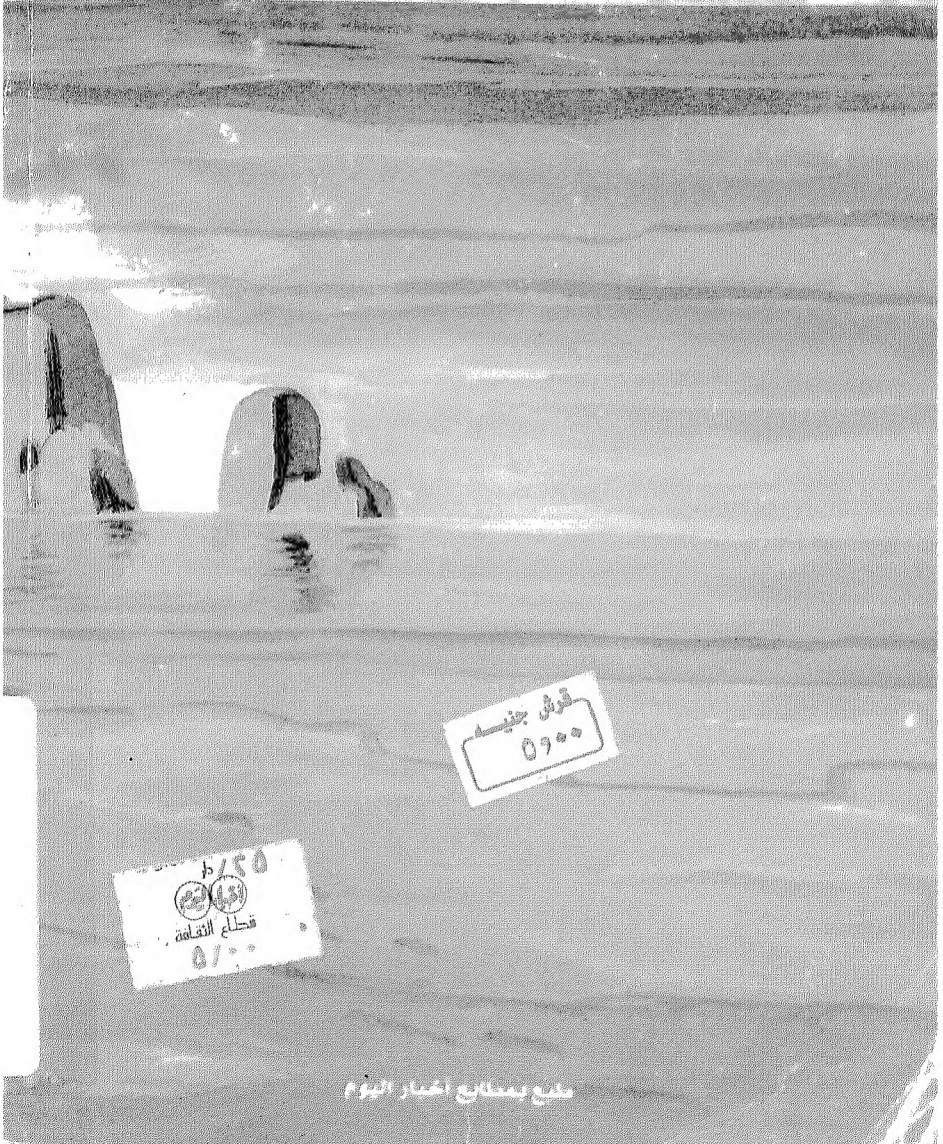
وقد وصل بمركبه حتى باب المنذب فى مدخل البحر
الأحمر.. من هناك كان يشترك فى عملية خنق إسرائيل.. وهو
واقف فوق السارى وذقنه طويل وشعر رأسه يغطى قفاه
وقميصه مهلهل وبنطلونه متآكل وقدماه الحافيتان فوق البحر.
ولن تنتهى حكايات الرئيس محمود جادالله.. وفى أعماق
البحر الأحمر جزيرة صخرية صغيرة أصبحوا يسمونها
«جزيرة جادالله».

رقم الإيداع ٩٨/١٤٤٩٤

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0784 - 2



قروش جنيسه
0900

150 ط
22 43
قطاع الثقافة
0100

موقع ومناخ اخبار اليوم